وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

خواطر وذكريات إفريقية

الدكتور تركي صقر

خواطر وذكريات

إفريقيــة

الإشراف الفني والطباعي
أحمـد عكيـدي

خواطر وذكريات إفريقية

الدكتور تركي صقر

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٩

خواطر وذكريات إفريقية / تركي صقر.- دمـــشق: الهيئـــة العامـــة السورية للكتاب، ٢٠٠٩.- ١٢٠ص ؛ ٢٤ سم.

١- ٨١٨,٠٣ ص ق ر خ ٢- العنوان ٣- صقر

مكتبة الأسد

المقدمة

ما كنت أتوقع أن تتاح لي فرصة التجول في العديد من الدول الإفريقية إلا بعد أن عينت سفيراً لدى جمهورية السودان وتم اعتمادي سفيراً غير مقيم في غضون أشهر من هذا التعيين لدى أربع دول إفريقية متاخمة للسودان هي إثيوبيا وكينيا وأوغندا واريتريا ومن ثم تم تفويضي مندوباً دائماً لسورية في منظمة الاتحاد الإفريقي بعد أن جرى قبول سورية عضواً مراقباً في هذا الاتحاد الذي يقع مقره في العاصمة الإثيوبية أديس أبابا.

اعتبرت أن هذه فرصة ثمينة بالنسبة لي للاطلاع على العالم الإفريقي من بشر وبلاد وحضارات ولغات وعادات وطباع وهموم ومشكلات وأزمات وما أكثرها في القارة السمراء التي تصنف في السلم الأخير من قارات الأرض، ورغم أني تجولت في العديد من بلدان الدنيا بحكم عملي الصحفي المديد وكتبت الكثير عنها من مقالات وزوايا ودراسات من كوبا إلى أوربا إلى تركمانستان إلى الصين التي ألّفت عنها كتاباً أسميته «عملاق يستيقظ» تنبأت فيه بنهوض الصين العظيم قبل عشرين سنة والذي نراه بأم العين هذه الأيام، إلا أني وجدت في إفريقيا نكهة خاصة وطيفاً سحرياً لا يدركه إلا من عاش واختلط مع أناس أفارقة على أرضهم وفي عقر دارهم، فالإفريقي خارج إفريقيا هو غير الإفريقي في داخلها، وعندما يهاجر الإفريقي أو يذهب إلى أوربا أو أي بلد آخر قد يأخذ نمط البلد الذي يعيش فيه تماماً ولكن ما أن يعود إلى بلاده حتى تعود إليه إفريقيته طبعاً وطباعاً وسلوكاً ومسلكاً.

ومن حسن الطالع أني عاركت العمل الصحفي والإعلامي وخبرته ودخلت في خفاياه وأسراره مدة تزيد قليلاً عن عقدين ونصف وأتيح لي بعدها أن أمسك بتلابيب العمل الدبلوماسي الذي يقترب ويبتعد عن العمل الصحفي بل في أحيان كثيرة يتنافر العملان إلى حد القطيعة، فالصحفي يبحث عن المعلومات ليكشفها ويعلنها للناس، والدبلوماسي يبحث عن المعلومة ليشبعها غموضاً ومواربة وتستراً عن أعين الإعلام، وتحقيق الموازنة بين العملين مسألة شاقة عانيت منها كثيراً، إلى أن وجدت صيغة توفيقية بعد جهد واجتهاد وأيقنت أن العملين يهدفان إلى غاية واحدة هي مصلحة الوطن وخير الشعب والأمة، وكنت أتذكر مقولة نابليون حين قال "إن صرير الأقلام يفوق أحياناً صرير المجنزرات ودوي المدافع، وإن ضحكة الدبلوماسي وابتسامته التي تخفي الكثير تعود بمكاسب كبرى لبلده وأبناء وطنه"، وكم من مرة قيل: أرسل حكيماً ولا توصيه . وأكثر ما يجب أن يتمتع به السفير الحكمة والهدوء والابتسامة وقد كان يقال للسفير الذي يذهب لإبلاغ رئيس الدولة المعتمد فيها قرار إعلان الحرب مع دولته: اذهب وبلغه هذا القرار وأنت مبتسم وإياك أن تكون عابساً أو متجهماً .

لقد أضفت خبرتي الصحفية والإعلامية إلى خبرتي الدبلوماسية المتواضعة، التي بدأتها سفيراً لبلادي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، خبرة مزدوجة مصقولة ولقد حملت هذا كله لأذهب سفيراً إلى السودان وسفيراً غير مقيم لعدد من الدول الإفريقية بمساحاتها الشاسعة وسكانها المتكاثرين كالفطر وعواصمها الناهضة وريفها الذي يعيش حياة ما قبل التاريخ حتى الآن .

ولا أنسى تلك المحطة الهامة في حياتي الدبلوماسية في إيران، فقد أعطتني تجربة عميقة وخبرة عميقة ولقد اطلعت على خبايا الحياة الإيرانية وتلمّست معالم الحضارة الفارسية وفي مدة قصيرة تمكنت من

زيارة معظم المدن الإيرانية ذات التاريخ العريق من أصفهان إلى أنزلة إلى جالوس إلى شيراز إلى مشهد مروراً بقزوين وكرج وجالوس والفيروز آبادي وقم وكرمان وكاشان دون أن أغفل زيارة جزيرة كيش وعبادان والأماكن الدينية والتاريخية في مشهد ومقام عمر الخيام الذي يرقد في إقليم خراسان، وتعرفت على أناس من مختلف الطبقات والأطياف والأجناس، وتعاملت مع لفيف من السفراء العرب والأجانب وتعلمت منهم الكثير.

أقول لقد حملت هذه التجربة التي تفاعلت معي وأمدتني بذخر كبير في عملي الدبلوماسي إلى القارة السمراء التي نرى الكثيرين يتعوذون بالشيطان إذا ما كلفوا بمهمة إليها، انطلاقاً ربما من انبهارهم بالحضارة الغربية والنزوع إلى متع الدنيا والحضارة والمدنية فيها، لكن من يريد أن يرى الدنيا من جوانبها الأخرى حلوها ومرها، عمقها وسطحيتها لا بد أن يرى عالماً آخر غير عالم الغرب، فالعالم الأوربي أضحى كما هو معروف هو العالم العجوز، العالم الهرم، العالم الذي يتقهقر سكانياً ويشيخ إنسانياً، بينما عالم آسيا وإفريقيا فتلك عوالم الشباب والفتوة، ولا توجد مقارنة بين أعداد الشباب في العالمين. وكم كنت أتأمل الأعداد الكبيرة من الأزواج الأوربيين وهم يأتون إلى العواصم الإفريقية لتبني أطفال أفارقة وما عليك إلا أن تمشي في شوارع أديس أبابا وحدائقها لترى هذه المشاهد، ولذلك لا نتجاوز الواقع إذا قلنا أن مستقبل العالم سيكون إفريقيا بعد أن أثبتت آسيا أنها بدأت هذا المستقبل بخطى حثيثة ومثالنا الواضح والصارخ هو الصين التي تملأ الدنيا وتشغل الناس في كل مكان من هذا الكوكب.

أعود إلى خواطري وذكرياتي الإفريقية لأقول إنني قررت أن أكتب وأستمر في الكتابة وأن تكون إفريقيا في خاطري أينما حللت وأنى ارتحلت، فما أن بدأت بتقديم أوراق الاعتماد إلى رؤساء الدول الإفريقية حتى تملكني هاجس الكتابة عما أراه وأشاهده واسمعه من أديس أبابا

العاصمة الإثيوبية، إلى نيروبي عاصمة كينيا، إلى أسمرا العاصمة الإريترية، مروراً بكمبالا عاصمة أوغندا. وكنت أذهب وأعود إلى السودان البلد الإفريقي الأرحب والأوسع وعاشر دولة في العالم من حيث المساحة والتي بحق كما يسمونها إفريقيا المصغرة، كنت أعود في كل مرة إلى الخرطوم ملتقى النيلين محملاً بالكثير من الخواطر والذكريات التي سطرتها في هذا الكتاب على شكل مقالات وانطباعات ومعلومات قصدت منها أن تحمل فائدة للقارئ فعسى أن أكون قد وفقت في هذا الجهد المتواضع .

والله ولي التوفيق

الخرطوم ٢٠/٧/٢٠٠٨

تركي صقر

ماذا قال التاريخ عن إفريقيا

يعتقد أن مولد الجنس البشري كان فيها بعد تطوره من جنس القردة منذ ٥- ٨ مليون سنة. وظهر البشر أسلاف جنسنا المعاصر منذ ١٣٠ ألف سنة وحتى ٩٠ ألف سنة. وانتشر على التتابع خارج القارة الإفريقية. وظهرت الحضارة المصرية القديمة بشمال شرق إفريقيا منذ ٧ آلاف سنة. ومع الزمن ظهرت وأفلت ثقافات ودول مختلفة. ومنذ ٥٠٠ سنة كانت توجد مدن مزدهرة وأسواق عامرة ومراكز ناهضة للتعليم حيث كانت تنتشر بالقارة. حتى أتى المستعمرون الأوربيون تجار للعبيد الذين راحوا يتصيدون الأفارقة، ليرسلوهم بالملايين قسراً لتعمير المستعمرات بالكاريبي وشمال وجنوب أمريكا. ونهبوا ثرواتها من خلال استعمارها بالكامل في القرن ١٩م. تضم إفريقيا حاليا ٥٣ دولة.

❖ الإنسان العاقل

ضمن فترة تمتد ما بين ٩٠ ألف سنة و ١٣٠ ألف سنة ظهر الإنسان العاقل، في شرق وجنوب القارة، وكان يصنع الخطافات والإبر من العظام والشفرات من الحجر الرقيق حيث شكل منها المكاشط وسكاكين اليد والسهام والرماح بعد تثبيتها في عصي. ومنذ ٩٠ ألف سنة نزح إلى الشرق الأوسط وأوربا ووسط آسيا وما وراءها. وكان البشر المعاصرون أعقاب هؤلاء الأسلاف الأفارقة. ومنذ ٤٠ ألف سنة كان البشر الأفارقة الأوائل يجمعون الثمار ويصطادون الأسماك والحيوانات البرية. وفي كل المناطق

الإفريقية التي حلوا بها توائموا مع بيئاتهم المناخية المتغيرة والمعيشية. وما بين سنتي ١٦٠٠٠ ق.م. و ١٣٠٠٠ ق.م. كان المناخ أكثر جفافاً عما هو عليه حالياً.

❖ إفريقيا ولغاتها الأربع

كانت الصحراء تمتد شمالاً وجنوباً علي حساب السهول العشبية والغابات وتقلصت مساحة الغابات الاستوائية المطيرة. وهذا ما سبب ضغطاً على السكان القدماء مما جعلهم يطوّرون تقنياتهم والعيش على مصادر الطعام المتاحة لهم. ونشروا تقنياتهم وثقافاتهم ولغاتهم فيما وراء مواطنهم. فأثروا على بقية السكان. وهذه الفترة أظهرت الأربع لغات الإفريقية الكبرى كاللغة الأفروآسيوية والنيلوصحراوية، والنيجركونغوية وكهيزان التي من بينها انحدرت كل اللغات الإفريقية. فمن إريتريا وتلال البحر الأحمر حتى شمال السودان كان السكان يتكلمون اللغة الأفروآسيوية وكانوا يجمعون بذور الحشائش البرية ويطحنونها. وخلال ألف سنة نشروا لغتهم وثقافتهم شمالاً في مصر وغرباً في كل شمال إفريقيا. وفي منطقة النيل بأواسط السودان كان السكان يتكلمون اللغة النيلوصحراوية. وكانوا يصطادون الوعول الكبيرة والماشية. وهؤلاء انتشروا جنوب شرق إفريقيا وغرب جنوب الصحراء.وفي مراعي وغابات غرب إفريقيا كان المتكلمون لغة النيجركونغوية يصطادون بالقوس والسهام ويصطادون الأسماك بالخطاطيف، وكانوا يجمعون من التربة بطاطا اليام وانتشرت ثقافتهم ولغاتهم في غرب ووسط إفريقيا وامتدت لتخوم جنوب القارة.

❖ تغير المناخ

بين سنتي ١١٠٠٠ ق.م. و٣٥٩٩ ق.م. اجتاح إفريقيا طور مناخ مطير،

وصل أعلى مداه ما بين سنتي ٩٠٠٠ ق.م. و٦٠٠٠ق.م. وأصبحت الصحارى عشبية وامتدت حولها الغابات وشقتها الأنهار، وظهرت بحيرة تشاد الكبرى. وتغير المناخ بشكل كبير حيث ظهرت الزراعة وتربية الحيوانات. أما أبناء الشعب النيلوصحراوي في وسط السودان فكانوا يحصلون على الحبوب من جيرانهم الأفروآسيويين. وزرعوا السورجم العشبي الاستوائي سنة ٨٠٠٠ ق.م. وفي هذا الوقت اخترعوا تقنيات لصنع الفخار وجمع وتخزين الطعام والمياه. وفي هذه الفترة نفسها كان المتكلمون اللغة النيلوصحراوية قد روضوا الماشية البرية حول وادي النيل. وما بين سنتي ٧٠٠٠ق.م. و٥٠٠٠ ق.م. كانوا يستعملون الرعي ويزرعون القرع والشمام والبقول، ونشروا فلاحتهم وممارسة رعيهم لقطعان مواشيهم باتجاه الغرب عبر الصحراء الجنوبية. وفي هذه الفترة بالشمال، كان المتكلمون اللغة الأفروآسيوية قد حملوا معهم البذور البرية لمصر وربوا الحمير والخنازير. ومنها انتشروا إلى الشرق الأوسط حيث زرعوا الحنطة والشعير. ومن هناك انتشرت زراعة القمح بالمناطق الساحلية على البحر الأبيض المتوسط بشمال إفريقيا. وفي هذه الأثناء ظهر شعب كوشيتك. وكان يتكلم الكوشيتكية وهي لغة منحدرة من اللغة الأفروآسيوية. وقام بنشر الرعي وزراعة الحبوب بالقرن الإفريقي والسهول الوسطى بشرق آسيا وفي وديان ومرتفعات إثيوبيا زرعوا حبوب التيف ونبات الإنست الذي ثمرته تشبه الموز. وفي غرب إفريقيا عاش المتكلمون باللغة النيجروكنجوية، وكانوا يزرعون بطاطا اليام في سافانا الغابات مابين سنتي ٨٠٠٠ ق.م. و٥٠٠٠ ق.م. وزرعوا أيضاً نخيل الزيوت ونخيل رافيا والبسلة والسوداني وجوز الكولا، وربوا الدجاج، وزرعوا الأرز في دلتا نهر النيجر. وبعد سنة ٣٠٠٠ ق.م. صنعوا البلطات الحجرية المصقولة لقطع الأشجار في الغابات، وتوغلوا في مناطقها الغربية المطيرة وجنوب شرق حوض نهر الكونغو. وبسبب المطر الغزيرة ظهر الصيد في الأنهار والبحيرات

ابتداءً من بحيرة تشاد لأعالي النيل وجنوباً لبحيرة تولركانا والوادي المتصدع بشرق إفريقيا. فكان صيادو الأسماك يبيعون الأسماك المجففة للحصول على الحبوب والمنتجات الأخرى من جيرانهم.

في سنة ٣٥٠٠ انحسرت الأمطار وأصبحت المناطق جافة وتحولت لصحراء، هاجرت منها قطعان الماشية وتقلصت الزراعات ولم يبق منها سوى ما حول مصادر المياه الدائمة كوادي النيل ببلاد النوبة بشمال السودان وجنوب مصر بمنطقة الشلالات.

❖ الصناعات المعدنية

ظهرت الصناعات المعدنية لأول مرة بإفريقيا في مصر قبل توحيدها عام ٣١٠٠ ق.م. حيث كان النحاس يستخدم فيها. وظلت الحجارة والنحاس أهم المواد التي تصنع منها الآلات بمصر حتى القرن ١٧ ق.م. عندما غزا الهكسوس البلاد من الشرق الأوسط. وحملوا معهم سبائك البرونز المتينة إليها. وأثناء حكم المملكة الحثية كان الذهب يزين المجوهرات وقصور الفراعنة ومقابرهم. وفي غرب مصر بجبال النيجر اكتشف النحاس وكانت أعمال النحاس قائمة هناك منذ سنة ٣٠٠٠ ق.م. وبحلول سنة ١٥٠٠ ق.م. كانت تقنيات تصنيع النحاس قد تطورت وصنعت أفران لصهره. وانتشرت صناعاته في جنوب الصحراء بالجزء الشمالي لإفريقيا. وجاءت تقنية صهر الحديد في الأفران من الشرق الأوسط لشمال شرق إفريقيا بمصر (من الحثيين منذ عام ٦٧٠ ق.م. لكنه كان معروفاً في جنوب الصحراء الكبرى قبل وصوله مصر بحوالي ٣٠٠ سنة حيث كان يصهر في الأفران ويصنع منه المشغولات الحديدية ولاسيما حول بحيرة تشاد وفي مناطق البحيرات الكبرى بشرق إفريقيا كبحيرة فيكتوريا وبحيرة تنجانيقا منذ ١٠٠٠ سنة ق. م. وانتشرت تقنية تصنيعه لدى الشعوب الزراعية في غرب ووسط وشرق

إفريقيا، ووصل جنوب إفريقيا في القرون الأولى للميلاد، ولوجوده ووفرته صنعت الآلات والأسلحة الحديدية مما مكّن سكان غرب إفريقيا من تقطيع الأشجار بالغابات لزراعتها وتطوير أساليب صيد الحيوانات. وقد شجع هذا السكان على الزراعة وانتشار المجمعات الزراعية. ولاسيما في أراضي دلتا نهر النيجر حيث انتشرت القرى الريفية. وكان القرويون ينتجون الأسماك المجففة والأرز والقطن. وكانوا ينتجون أكثر من حاجتهم، فكانوا يتاجرون بما ينتجونه مع جيرانهم. وحوالي سنة ٢٥٠ ق.م. في جنوب مالي ظهر أكبر المراكز التجارية.

❖ تقنية الري

انتشرت زراعة الأرز في غينيا وسيراليون وليبيريا. وفي هذه الدول استطاع الفلاحون المحليون تطوير تقنية الري. فكانوا يستعملون المياه المالحة الناجمة عن المد البحري في تطهير الأرض من الحشائش ويستعملون مياه الأنهار العذبة لري الأرز. وقد نقل العبيد الذين أخذوا قسراً وقهراً بعد عدة قرون، تقنيات الزراعة لولاية كاروليتا الأمريكية. وفي غرب إفريقيا كانت المجتمعات النيجروكونغوية تضم صنّاعاً مهرة للمشغولات اليدوية، متخصصين في حفر الخشب وصناعة قوارب الكانو التي كانت تبنى من سيقان الأشجار المحفورة، والكراسي بثلاثة أرجل والأقنعة التي كانت تستعمل في الأعياد والطقوس الدينية. وفي سهول وسط نيجيريا المترامية حيث ظهرت منذ عام ٥٠٠ ق.م. حضارة النوك كان الصناع المهرة يستخدمون تقنية النقش وصناعة الفخار في نحت الرؤوس للأشخاص والحيوانات من الطين الطري ويجففونه. وبحلول عام ٢٠٠٠ ق.م. نزح فلاحو شعب البانتو من الكاميرون وشرق نيجيريا إلى غابات حوض نهر الكونغو. وحملوا معهم ثقافتهم النيجركونغوية. لقد أبحروا ووصلوا في

قوارب الكانو، وأقاموا مستوطناتهم على ضفتي نهر الكونغو وزرعوا بطاطا اليام ونخيل الزيوت واصطادوا الحيوانات والأسماك. وفي سنة ١٠٠٠ق.م. توغلوا لما وراء الغابات ووصلوا إلى المراعي العشبية في أنجولا ومنطقة البحيرات الكبرى، وتعلموا تصنيع الحديد وتربية المواشي وزراعة الحبوب من جيرانهم السودانيين والكوشيتيين. ففلاح البانتو كان يزرع البطاطا ويبذر الحبوب ويرعى المواشي ويربي الحيوانات الداجنة ويصنع الحديد والفخار. هذه المهارات التقنية جعلتهم ينتشرون بمجموعات صغيرة في شرق ووسط وجنوب إفريقيا مابين سنتي ٣٠٠ ق.م. و٣٠٠ م. وتفاعلوا مع سكان هذه المناطق من الكهوزان. والمنطقة الوحيدة التي لم يصلوها هي الركن الغربي الجنوبي من إفريقيا، لأنها كانت منطقة جافة لا تصلح للزراعة.

❖ الإغريق والرومان

كان الإغريق قد استولوا على مصر عام ٣٣٢ ق.م. فربطوها بثروات البحر الأبيض المتوسط، وتكيفوا مع الثقافة المصرية. وأصبحت اليونانية لغة الدواوين والتجارة. وأقاموا الإسكندرية عاصمة لهم والتي أصبحت بعد عدة قرون واحدة من أهم المراكز التجارية في العالم القديم.

استولى الرومان على مصر عام ٣١ ق.م. وكانت مصر تمد روما بالقمح. كما استولوا على شمال إفريقيا منذ ١٥٠ ق.م. وكان الرومان يطلقون على إقليم تونس الخاضع لهم كلمة إفريقيا. وكان بغربه ممالك قبائل البربر التي كانت تتألف من رعاة الجبال الذين استقروا للزراعة على السواحل في شمال الجزائر وموريتانيا وشمال مراكش. وكان الرومان يطلقون على هذه المناطق اسم (نوميديا). وقد حافظت هذه المناطق على استقلالها، لكنها دخلت في معاهدات تجارية مع الرومان. وبحلول عام ٢٠٠م. أصبحت هذه البلدان خاضعة للرومان. وكان شمال إفريقيا الروماني

يمد الإمبراطورية الرومانية بالقمح والزيتون الذي كان ينمو على الساحل، وظهرت مزارع شاسعة يعمل بها العبيد البربر. ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية خضع شمال إفريقيا للفندال الجرمانيين ثم للإمبراطورية البيزنطية بالقسطنطينية عام ٥٣٣م. وفي سنة ١٠٠ م. دخلت المسيحية مصر ومنها انتشرت إلى النوبة وإثيوبيا جنوبا وغربا، وبلغت مناطق البربر شمالا. وكان الرومان قد أدخلوا سنة ٢٠٠ م، الجمل الذي يعتبر ثورة في المواصلات عبر رمال الصحراء بالشمال الإفريقي. وكانت قوافل الجمال التجارية تعبر الصحراء في شهرين وتتوجه من واحة لأخرى. فانتعشت التجارة بين غرب إفريقيا الذي يصدر العبيد والذهب والملح والمنتجات الحيوانية، وساحل البحر الأبيض المتوسط الذي كان يصدر الخيول والملابس والأسلحة.

❖ الإسلام في إفريقيا

دخل العرب المسلمون إلى مصر حاملين معهم رسالة الإسلام عام ٦٤١م. التي انتشرت في شمال إفريقيا بالقرن السابع ثم انتقلت إلى إسبانيا. ودخل الإسلام إلى النوبة في القرن ١٤م عن طريق التجار العرب. وظهرت مملكة غانا بين الصحراء الكبرى والغابات القائمة في جنوب شرق موريتانيا. وكان عمادها التجارة بالذهب الذي كان ينتج في جنوبها وتشتريه قوافل بدو الصحراء التجارية لتحمله إلى شمال إفريقيا. وكانت غانا قد تحولت على أيدي المرابطين بمراكش للإسلام في القرن ١١م. وكانت قبائل سونينك ومادينكا (أو منديجو أو مالينك) قد انفصلت عن غانا عام ١٢٣٠ حيث قام قائد ماندينكا سانديانا كيتا بتكوين اتحاد للقبائل في الوادي الخصيب بأعالي نهر النيجر، وأخضع جيرانه لسلطته مؤسسا إمبراطورية مالي التي فاقت مملكة غانا قوة وامتداداً. وقامت في الجانب الشرقي لمنحنى نهر النيجر، منذ القرن الثامن الميلادي، إمبراطورية تعرف باسم سونغاي

(سونجهاي)، وهي مملكة تجارية كانت عاصمتها جاو، وهي أول دولة تنفصل عن إمبراطورية مالي الممتدة من ساحل المحيط الأطلنطي حتى وسط النيجر. وفي أواخر القرن ١٦ م. عانت الإمبراطورية من الصراعات والنزاعات مما أضعف السلطة المركزية وأدى إلى نشوء عدة دول بالشرق كبورنو ودول مدن الهوسا وسلطنة الطوارق التي استولت عليها مراكش عام ١٥٩١ م.



المصدر: ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرة .

حقائق وأرقام إفريقية

إفريقيا، وتسمى كذلك «القارة السمراء»، هي ثاني أكبر قارة بالعالم بعد آسيا. يحدها البحر الأبيض من الشمال والبحر الأحمر من الشرق ويحيط بها المحيطان الأطلنطي والهندي من الغرب والجنوب والشرق. وهي تتصل، من الغرب وفي أقصى شمال شرقها، بآسيا براً عبر شبه جزيرة سيناء. وإفريقيا قارة متعددة الثقافات وبها مئات اللغات المختلفة. والعديد من قراها وأريافها ما يزال يعيش عيشة بدائية لم تتطور منذ مئات السنين.

يعتبر الوادي المتصدع الكبير أحد الملامح البارزة في طبوغرافية القارة السمراء. وقد نشأ من فلق بقشرة الأرض. لهذا فهو يتكون من وديان عديدة متصدعة. ويبدأ هذا الوادي المتصدع من سوريا بالشرق الأوسط ليمتد جنوباً ويمر بطول البحر الأحمر ليدخل إفريقيا من عند منخفض عفار على ساحل إريتريا وجيبوتي ويتجه حتى يصل ساحل جنوب موزامبيق. وثمة بحيرات في شرق وغرب الوادي المتصدع من بينها بحيرات منابع نهري النيل والكونغو. وبإفريقيا أربعة أنهار عظمى كنهر النيل والكونغو ونهر النيجر ونهر زمبيزي.

مناطق إفريقيا : شمال إفريقيا - غرب إفريقيا - وسط إفريقيا - شرق إفريقيا - إفريقيا الجنوبية.

❖ دول إفريقيا

تحتوي قارة إفريقيا على ٥٣ دولة (+٧ مناطق أوروبية) مرتبة في الجدول التالي حسب المنطقة:

اسم الدولة أو المنطقة	المساحة (كم٢)	عدد السكان (١ يوليو ٢٠٠٢)	الكثافة السكانية (لكل كم٢)	العاصمة
دول شرق إفريقيا: ١٤				
جيبوتي	٢٣،٠٠٠	٤٧٢،٨١٠	٢٠،٦	جيبوتي
إريتريا	١٢١،٣٢٠	٤،٤٦٥،٦٥١	٣٦،٨	أسمرة
إثيوبيا	١،١٢٧،١٢٧	٦٧،٦٧٣،٠٣١	٦٠،٠	أديس أبابا
كينيا	٥٨٢،٦٥٠	٣١،١٣٨،٧٣٥	٥٣،٤	نيروبي
مدغشقر	٨٠١،٥٩٠	١٩،٦٠٧،٥١٩	٢٤،٥	مابوتو
الصومال	٦٣٧،٦٥٧	٧،٧٥٣،٣١٠	١٢،٢	مقديشو
تنزانيا	٩٤٥،٠٨٧	٣٧،١٨٧،٩٣٩	٣٩،٣	دودوما وسابقاً دار السلام
ملاوي	١١٨،٤٨٠	١٠،٣٨٥،٨٤٩	٨٧،٦٥٩	ليلونغوي
موزمبيق	٨٠١،٥٩٠	١٩،١٠٤،٦٩٦	٢٣،٨٣٣	مابوتو
أوغندا	٢٣٦،٠٤٠	٢٤،٦٩٩،٠٧٣	١٠٤،٦	كمبالا
زامبيا	٧٥٢،٦١٤	٩،٩٥٩،٠٣٧	١٣،٢	لوساكا
زمبابوي	٣٩٠،٥٨٠	١١،٣٧٦،٦٧٦	٢٩،١	هراري
رواندا	٢٦،٣٣٨	٧،٩٥٤،٠١٣	٣٠٢	كينغالي

اسم الدولة أو المنطقة	المساحة (كم٢)	عدد السكان (١ يوليو ٢٠٠٢)	الكثافة السكانية (لكل كم٢)	العاصمة
دول وسط إفريقيا: ٩				
أنجولا	١،٢٤٦،٧٠٠	١٠،٥٩٣،١٧١	٨،٥	لواندا
الكاميرون	٤٧٥،٤٤٠	١٦،١٨٤،٧٤٨	٣٤،٠	ياوندي
جمهورية إفريقيا الوسطى	٦٢٢،٩٨٤	٣،٦٤٢،٧٣٩	٥،٨	بانجي
تشاد	١،٢٨٤،٠٠٠	٨،٩٩٧،٢٣٧	٧،٠	إنجامينا
الكونغو	٣٤٢،٠٠٠	٢،٩٥٨،٤٤٨	٨،٧	برازافيل
الكونغو الديمقراطية (زائير سابقا)	٢،٣٤٥،٤١٠	٥٥،٢٢٥،٤٧٨	٢٣،٥	كينشاسا
غينيا الاستوائية	٢٨،٠٥١	٤٩٨،١٤٤	١٧،٨	مالابو
الجابون	٢٦٧،٦٦٧	١،٢٣٣،٣٥٣	٤،٦	ليبرفيل
ساو تومي وبرينسيبي	١،٠٠١	١٧٠،٣٧٢	١٧٠،٢	ساو تومي
دول شمال إفريقيا: ٦				
الجزائر	٢،٣٨١،٧٤٠	٣٢،٢٧٧،٩٤٢	١٣،٦	الجزائر (مدينة)
مصر	١،٠٠١،٤٥٠	٧٠،٧١٢،٣٤٥	٧٠،٦	القاهرة
ليبيا	١،٧٥٩،٥٤٠	٥،٣٦٨،٥٨٥	٣،١	طرابلس
المغرب	٧٨٥،٥٥٠	٣١،١٦٧،٧٨٣	٦٩،٨	الرباط

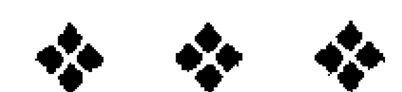
السودان	٢،٥٠٥،٨١٠	٣٧،٠٩٠،٢٩٨	١٤،٨	الخرطوم
تونس	١٦٣،٦١٠	٩،٨١٥،٦٤٤	٦٠،٠	تونس
دول جنوب إفريقيا:				
بتسوانا	٦٠٠،٣٧٠	١،٥٩١،٢٣٢	٢،٧	جابورون
ليسوثو	٣٠،٣٥٥	٢،٢٠٧،٩٥٤	٧٢،٧	ماسيرو
ناميبيا	٨٢٥،٤١٨	١،٨٢٠،٩١٦	٢،٢	ويندهوك
جنوب إفريقيا	١،٢١٩،٩١٢	٤٣،٦٤٧،٦٥٨	٣٥،٨	بريتوريا
سوازيلاند	١٧،٣٦٣	١،١٢٣،٦٠٥	٦٤،٧	مبابان
دول غرب إفريقيا: ١٦				
بنين	١١٢،٦٢٠	٦،٧٨٧،٦٢٥	٦٠،٣	بورتو نوفو
بوركينا فاسو	٢٧٤،٢٠٠	١٢،٦٠٣،١٨٥	٤٦،٠	واغادوغو
الرأس الأخضر	٤،٠٣٣	٤٠٨،٧٦٠	١٠١،٤	برايا
ساحل العاج (كوت دي فوار)	٣٢٢،٤٦٠	١٦،٨٠٤،٧٨٤	٥٢،١	أبيدجان ياموسوكرو[١]
جامبيا	١١،٣٠٠	١،٤٥٥،٨٤٢	١٢٨،٨	بانجول
غانا	٢٣٩،٤٦٠	٢٠،٢٤٤،١٥٤	٨٤،٥	أكرا
غينيا	٢٤٥،٨٥٧	٧،٧٧٥،٠٦٥	٣١،٦	كوناكري
غينيا بيساو	٣٦،١٢٠	١،٣٤٥،٤٧٩	٣٧،٣	بيساو
ليبيريا	١١١،٣٧٠	٣،٢٨٨،١٩٨	٢٩،٥	مونروفيا

مالي	١،٢٤٠،٠٠٠	١١،٣٤٠،٤٨٠	٩،١	باماكو
موريتانيا	١،٠٣٠،٧٠٠	٢،٨٢٨،٨٥٨	٢،٧	نواكشوط
النيجر	١،٢٦٧،٠٠٠	١٠،٦٣٩،٧٤٤	٨،٤	نيامي
نيجيريا	٩٢٣،٧٦٨	١٢٩،٩٣٤،٩١١	١٤٠،٧	أبوجا
السنغال	١٩٦،١٩٠	١٠،٥٨٩،٥٧١	٥٤،٠	داكار
سيراليون	٧١،٧٤٠	٥،٦١٤،٧٤٣	٧٨،٣	فريتاون
توجو	٥٦،٧٨٥	٥،٢٨٥،٥٠١	٩٣،١	لومي
دول جنوب شرق إفريقيا (٣ جزر)				
جزر القمر	٢،١٧٠	٦١٤،٣٨٢	٢٨٣،١	موروني
سيشيل	٤٥٥	٨٠،٠٩٨	١٦٧	بورت فيكتوريا
موريشيوس	٢،٠٤٠	١،٢١٩،٢٢٠	٥٨٨	بور لويس
مناطق تابعة لأوروبا في إفريقيا: ٦				
جزر الكناري (إسبانيا)	٧،٤٩٢	١،٦٩٤،٤٧٧	٢٢٦،٢	لاس بالماس، سانتا كروز
سبتة (إسبانيا)	٢٠	٧١،٥٠٥	٣،٥٧٥،٢	—
جزر ماديرا (البرتغال)	٧٩٧	٢٤٥،٠٠٠	٣٠٧،٤	فونشال
مليلية (إسبانيا)	١٢	٦٦،٤١١	٥،٥٣٤،٢	—
سانت هيلينا (المملكة المتحدة)	٤١٠	٧،٣١٧	١٧،٨	جيمستاون

ريونيون (فرنسا)	٨٠،٠٩٨	١٧٦،٠	٠،٠٢١	فكتوريا
مايوطه (فرنسا)	–	–	–	–

❖ **خصائص**

- تحتوي إفريقيا على تنوع طبيعي هائل، من كائنات حية، ثروات طبيعية.
- كما تحتوي على أكبر مناجم الذهب والماس في العالم.
- تعرضت معظم دولها للاستعمار مما أدى إلى نهب خيراتها.
- لم تعرف إفريقيا استقراراً تاماً إلى يومنا هذا بسبب الحروب الأهلية في الكثير من دولها .
- تعدّ من أفقر قارات العالم وأقلها من حيث النمو الاقتصادي.



المصدر: ويكيبيديا – الموسوعة الحرة .

الزنجوية الإفريقية

في إفريقيا تختلط عليك الأسماء والمسميات، وتتشابه الأشكال والقسمات، وتتمازج الدعوات وتتداح الظواهر بين عتيق متهالك وعصري يحبو ويتعثر، وكالفطر في غابة رطباء تكثر الأعراق وتتنوع، وتشتد الحاجة إلى الوشم على الجباه والتشطيب على الوجوه للتمييز بين القبائل والمجموعات البشرية.

وفي إفريقيا تشتد حروب الفقراء ويعلو صخب المعارك بين الغابة والصحراء، وتدخل على الخط تيارات الهوية والانتماء في جدل بيزنطي وحوار أشبه بموسيقا الجاز.

في خضم هذا كله راجت دعوات أغلبها من منشأ غير إفريقي كان أخطرها الدعوة إلى الإفريقية أو الزنجية أو الزنجوية كمصطلح شاع في الأدبيات السياسية.

وعندما نقول إنها الأخطر فسبب انتشارها كظاهرة لاقت دعماً من خارج القارة مستهدفة إحداث شرخ عميق بين الإفريقية والعربية.

صحيح أن فكرة الزنجية أو الإفريقية الزنجوية نشأت بالأصل في جزر المارتينك على يد الشاعر إيمي سيزار ولكن الصحيح أيضاً أنها اكتست لحماً وعظماً من بيوتات الغرب الاستعماري لتوسيع الشقة بين العرب والأفارقة حفاظاً على المكاسب التي تمت خلال الفترة الاستعمارية ومنعاً لعودة أي امتداد عربي أو إسلامي إلى القارة السمراء.

وانتقلت الفكرة من سيزار إلى صديقه ليوبولد سنغور الذي روج لها في إفريقيا الغربية بتأييد فرنسي وتحت مظلة من أفكار العدالة والاشتراكية ليتقبلها المضطهدون، ولكن سرعان ما اكتشف أمر هذه الدعوة، عندما اعتبر سنغور اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لفلسفة الزنجية، وفي المناطق التي تسود فيها اللغة الإنكليزية كالسودان قفزوا إلى الأمام واعتبروا أن اللغة الإنكليزية هي لغة الدعوة إلى الإفريقية أو الزنجوية، وبدا واضحاً أن المستهدف هو العربية وقطع الصلة معها، رغم أن الغالبية العظمى في إفريقيا تتكلم اللغة العربية أحسن من أية لغة أخرى وحتى في جنوب السودان فإن لغة التفاهم المشتركة بين جميع القبائل هي العربية.

ومن حسن الطالع أن قادة كباراً في إفريقيا أمثال كوامي نكروما وموديبو كيتا وأحمد سيكتوري لم يتبنوا هذه الدعوة ووصفوها بأنها مفهوم غير صحيح وسلاح غير عقلاني وأنها غير قابلة للاستمرار لأنها تقوم على التمييز العنصري المضاد.

لكن أكثر من أصابها في الصميم وهزّ أركانها الكاتب المعروف فرانز فانون صاحب رائعة «المعذبون في الأرض» الذي يعود بأصوله إلى جزر المارتينك أيضاً، فقد طالب فانون بأن يتم استبدال شعار العنصرية المضاد هذا بأدب يندرج مباشرة في الكفاح المشترك بين الشعوب بغض النظر عن العرق أو اللون أو الجذور.

وفند الفكرة مفكرون أفارقة بالقول إنه لا يمكن قبول الزنجوية كفلسفة لتغيير التاريخ لأنها بالضرورة ليست حقيقة موضوعية وإنما هي رد فعل ذاتي هش وفكرة مفتعلة، فالثقافة ككائن عضوي وقوة دافعة للنمو الحضاري لا يمكن أن تفسر إلا بالظروف المادية والمعنوية التي تحيط بالإنسان وتتفاعل معه، وهي لا تفسر بالعنصرية أو لون العيون والبشرة أو الطول أو القصر، فالزنجوية ليست صادرة عن وعي لعدم بياض البشرة،

وهي مع إخلاص دعاتها لها بوعي أو بغير وعي تخدم في نهاية الأمر مطامع من يتوقون إلى بقاء إفريقيا تملأ خزائنهم بالثروات، وهؤلاء ما فتئوا منذ قرون يسعون لدمج شعوب القارة على أساس عنصري وعرقي شريطة ألا يميزهم إلا اللون الواحد، وألا توحدهم مقاومة من سبب لهم هذا السحق التاريخي كله.

وأخال أن شدة تركيزهم على الزنجية والتعصب لها نابع من خشيتهم أن تعود العربية التي قدمت في الماضي نموذجاً حياً للإخاء بين الأفارقة والعرب، كونهم يعلمون أن الفكرة العربية الإسلامية التي جمعت بين بلال الحبشي الزنجي والرسول الكريم والصحابة تحمل في ثناياها روح التآخي الصادق العميق الذي سما على الجذور الطبقية والقبلية والعنصرية واستطاع أن يستحوذ على قلوب شعوب كثيرة ومنها الشعوب الإفريقية.

ويبدو أن هذا الهاجس لم يرحل من عقلية دعاة القطيعة بين العربية والإفريقية غير أن نجم جيل الإفريقانية في طريقه إلى الأفول بعد أن ظهر جيل إفريقي جديد نبذ الأفكار التعصبية البائسة وشغل نفسه بدلاً منها بقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتطور العلمي والتقني وتحديث بلدانه ومجتمعاته وباتت النظرة الواقعية بعيداً عن كل نظرة عنصرية ضيقة هي أساس تفكيره، وأخيراً جاءت الضربة القاصمة على يد المناضل الإفريقي نيلسون مانديلا الذي أيدته شعوب الأرض لا بسبب الزنجية وإنما بسبب الممارسات العنصرية البغيضة فالاضطهاد والقهر لا يقيمان وزناً للشكل أو اللون وعنصرية إسرائيل الحاقدة أسطع دليل.

تقول الرواية إن الحق والباطل ذهبا إلى الغابة وعندما عاد الباطل وحيداً سألوه أين الحق فقال: تركته يحترق في الغابة، فذهبوا إليه فوجدوه كومة من السواد فأخذوا منه وجعلوه حبراً على ورق فكان الحرف الذي يضيء الأفكار ويشع في العقول على مدى الأيام والدهور.

❖ الاتحاد الإفريقي فيل عاجز

الاتحاد الإفريقي منظمة أكبر من إقليمية وأصغر من دولية، فهو منظمة قارية تضم بين جنباتها كل الدول الإفريقية التي تربو على ٥٣ دولة، وهناك في القارة عدد من المنظمات الإقليمية مثل الايكاد والكوميسا والاتحاد المغاربي الذي لايعرف أحد هل هو ميت أم على قيد الحياة، وهموم القارة كثيرة لم تستطع قمم الاتحاد التي وصلت إلى ١١ قمة حتى الآن أن تعالج شيئاً يذكر منها.

وقد كان القفز فوق المشكلات المستعصيه هو مما تتسم به قرارات هذه القمم، بل كان الشغل الشاغل للقمم الأخيرة في أكرا وأديس أبابا وشرم الشيخ تحويل الاتحاد الإفريقي إلى الولايات الإفريقية المتحدة وتشكيل حكومة إفريقية على نمط الولايات المتحدة الأمريكية ويكون من مسؤولية هذه الحكومة تشكيل جيش يتكون من مليوني جندي وإصدار عملة موحدة وجوازات سفر موحدة أيضاً وتبني سياسة خارجية واحدة مع إلغاء الحدود بين الدول الإفريقية.

لكن هذه الأحلام تبخرت في قمة أكرا ولم ينجز منها شيء وجرى ترحيلها بالكامل إلى أجندة قمة أديس أبابا ثم مرة أخرى إلى قمة شرم الشيخ عسى ولعل أن يجد أحدها طريقه إلى التنفيذ إلا أن الواقع عكس الأماني والتمنيات، فالنزاعات داخل القارة تزداد ولا تتراجع، والاضطرابات داخل بعض الدول حول السلطة تلتهب مع كل دورة انتخابية، وهناك على الأقل ثمانية عشر نزاعاً جلها من العيار الثقيل والمشتعل بين الدول الإفريقية، وهو مرشح للمزيد، وجيش من مليوني جندي لن يستطيع أن يوقف كل هذه الحروب، ناهيك عن أن جيشاً بهذا الحجم يحتاج إلى عشرات المليارات من الدولارات، فمن أين تأتي والاتحاد الإفريقي يقف عاجزاً عن تمويل ثمانية آلاف جندي أرسلهم إلى دارفور؟ وحكاية القوات

الهجينـة التـي تم اللجـوء إليهـا لا تـزال معلقـة كمـا لا يـزال عجـز الاتحـاد الإفريقي واضحاً أمام دفع آلاف من الجنود إلى الصومال لتحقيق حد أدنى من الأمن والاستقرار في هذا البلد المنكوب بالصراعات المزمنة.

والسؤال المطروح هل أولى بالدول الإفريقية تشكيل جيش من مليوني جندي يكلف عشرات المليارات من الدولارات أم إنقاذ حياة الملايين من الجوع والفقر والأمراض التي تضرب جذورها في القارة وعلى وجه الخصوص الإيدز والملاريا وغيرهما.

ثم إن إفريقيا قبل احتياجها للجيش الجرار الواحد محتاجة إلى تواصل حقيقي بين شعوبها وإلى إقامة بنيات تحتية أساسية، وإلى تنمية اقتصادية مستدامة وإلى إلغاء الديون التي تحجب عنها أية إمكانية للتقدم أو التطور.. وهذه قمة برشلونة الأفرو أوربية الثانية التي عقدت أواخر العام الماضي خرجت منها الدول الإفريقية بخفي حنين في هذا المجال، لأن الدول الأوروبية لها اشتراطات على أي دولار تمنحه للقارة السمراء. فبعد أن كانت تشترط بناء نظام ديمقراطي والتحول إلى الحكم الرشيد في أي دولة إفريقية تتلقى المساعدات الغربية تخلت عن هذا وانتقلت إلى فرض معايير تجارية تقوم على نهب الموارد الخام الإفريقية وزيادة إفقار دول القارة.

وإذا كان طرح تسمية الاتحاد الإفريقي للتشبه بالاتحاد الأوروبي صحيحاً على صعيد التسمية فإنه في المضمون لا يعبر عن شيء لأن أهم شرطين قام عليهما الاتحاد الأوروبي غير متوفرين في القارة الإفريقية وهما الديمقراطية الحقيقية ومساعدة الدول الأكثر ثراء للدول الأخرى الفقيرة. وفي إفريقيا أين الدول الغنية التي تستطيع انتشال غيرها من هوة الفقر وتحفيزها لإتباع النهج الديمقراطي؟ فالدول الإفريقية المعتبرة من الدول الغنية جلها غارق في النهب والفساد وتبذير أموالها وهي تعارض فكرة الحكومة الإفريقية الواحدة، ثم إن فكرة توحيد العملة تشبه النكتة حيث

لا توجد أموال حتى تجمع في عملة واحدة، إضافة إلى الفوارق الكبيرة في اقتصاديات الدول الإفريقية، ومسألة الجواز الموحد تبدو أقرب إلى الدعابة لأن الصراعات الحدودية في إفريقيا والنزاعات بين حدودها تنخر في أكثر من ثلث دول القارة.

نعود إلى فكرة إقامة حكومة الاتحاد الإفريقي التي عجزت قمة أكرا عن الوصول إلى ترجمة لها فأحالتها إلى لجنة وزارية تضم عشر دول إفريقية ستقدم تقريرها للقمة الحالية. وتسرب عن هذه اللجنة أنها ستوصي بضرورة أن تكون الحكومة الإفريقية حكومة للشعوب وليست اتحاداً للحكومات أي أن الفكرة أصبحت فكرة شعبية لا رسمية ولكن يبقى أمام قمة أديس أبابا ملفات ساخنة وصعبة هي ملفات النزاعات في إفريقيا، من الصومال إلى غرب القارة مروراً بدارفور فضلاً عن التصارع على السلطة، مثل نتائج الانتخابات الكينية الأخيرة والعلاقة مع التكتلات الدولية مثل الاتحاد الأوروبي والتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية والصين، كما يلحق بذلك كله انتخاب رئيس جديد لمفوضية الاتحاد الإفريقي بدلاً من الرئيس الحالي الفا عمر كوناري ونائبه وثمانية مفوضين آخرين ويتنافس على هذا المنصب /٥١/ مرشحاً من مختلف الدول الإفريقية.

هذه الملفات الساخنة مطروحة على طاولة القادة الأفارقة دوماً وتنتظر حلولاً لها بعد أن تم تأجيل بعضها مرات عدة وتمت جدولتها من قمة إلى أخرى مع إضافة ملفات جديدة، وهذا حال معظم المنظمات الإقليمية التي تبدو أضعف من حجم التحديات التي تواجهها في ظل العولمة الشرسة وتحكم القطب الواحد في الساحة الدولية ما خلف كوارث بالجملة على شعوب العالم إلا أنه يمكن للدول العربية في الاتحاد أن تلعب دوراً فعالاً في مسيرته إذا نسقت فيما بينها وتضامنت ووحدت كلمتها فالثقل العربي الإفريقي ليس قليلاً وكانت له الكلمة الراجحة في الماضي فهل يعود هذا الثقل مرة أخرى أم أن ذلك أيضاً من الأحلام.

❖ حال إفريقيا مع العرب

في مقابل النظرة السوداوية الغالبة إلى حال إفريقيا اليوم على أنها قارة المليوني جائع ومئات ملايين الفقراء وقارة التصحر والملاريا والكوليرا والتدرن الرئوي والإيدز والجهل والناس الغلابة وتجارة الرقيق والعبيد وخزان الخدم وقاع القارات الأخرى، هناك نظرة مستقبلية تقول إن إفريقيا بعد أقل من عقد ونصف من الزمن ستكون قارة الشباب في العالم، وإن عدد سكانها في غضون هذه الفترة الوجيزة سيفوق عدد سكان أوروبا والولايات المتحدة الأميركية مجتمعتين وإنه سيكون أيضاً من أصل كل ثلاثة أفراد من سكان العالم فرد إفريقي، وإنه في موازاة أوروبا التي تهرم وتشيخ... هناك إفريقيا التي تصعد وتزداد شباباً.

إن إفريقيا ذات الثلاث والخمسين دولة تشغل مساحة تفوق ضعف روسيا الاتحادية وثلاثة أضعاف مساحة الصين، وإن أعطافها تكتنز ثروات هائلة مكتشفة وغير مكتشفة، وإن صحراءها تغفو على بحيرات من النفط ومكامن من الغاز والمعادن المشعة، يجعلها في مرمى أطماع الدول الكبرى التي ترسم الخطط للإحكام عليها بعد أن جرى تقسيمها في السابق إلى إفريقيا أنجلوفونية وإفريقيا فرانكفونية.

والسؤال الذي ملّ الناس سماعه، ماذا فعل العرب من أجل إفريقيا؟ والسؤال الأكثر عصرية طرحته ندوة آفاق التعاون العربي الإفريقي، في العاصمة السودانية قبل أيام من انعقاد قمة الخرطوم، وهو هل نترك إفريقيا للآخرين؟ بمعنى آخر هل نترك أنفسنا نهباً للآخرين، لأن جلّ العرب يعيشون في إفريقيا وإن أكثر من ثلثي سكان الوطن العربي هم في إفريقيا وإن أكثر من ثلثي مساحة الوطن العربي إفريقية.

والأخطر من ذلك أن غالبية الدول الإفريقية كانت ظهير العرب في

صراعهم مع «إسرائيل»، ولم تقم أية دولة من هذه الدول أية علاقة ديبلوماسية مع «إسرائيل»، لكن عندما تصدع الموقف العربي بعد اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٦ وغزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ وقبلها الحرب العراقية الإيرانية والنزاعات الحدودية العربية والصراعات الداخلية في الدول العربية... انفضت هذه الدول وفتحت علاقات مع «إسرائيل» وتحول بعضها إلى دول معادية للقضية العربية المركزية في فلسطين ومعادية للتعاون العربي الإفريقي أيضاً.

ولمن فاته معرفة بعض لمع التاريخ فإن العرب أول من أطلق اسم إفريقيا على هذه القارة، وإنه تم العثور على آثار ونقوش لكتابات حميرية قديمة في منطقة الساحل السوداني من البحر الأحمر، وإن ارتباط نشأة مملكة قرطاج في تونس بالعرب الكنعانيين القدماء معروف ومشهور تاريخياً. وإن اللغة العربية مازالت تعتبر لغة رئيسة في إفريقيا كلها، بل لعلها أثرت في بعض اللغات الإفريقية مثل الهوسا والسواحيلي، وعلى الرغم من اجتياحات اللغة الإنكليزية في العالم وفي إفريقيا فإن هناك من يقول إن من لا يتكلم العربية في إفريقيا لابد أن يشعر بالنقص في المستقبل والغربة في محيطه.

وفي الندوة التي أشرت إليها حول التعاون العربي الإفريقي كثرت التساؤلات عن سبب تجميد هذا التعاون، وعن الحصاد المتواضع منذ انعقاد أول قمة عربية إفريقية في القاهرة عام ١٩٧٧ والتي لم ينعقد بعدها أية قمة أخرى، كما كثرت التأوهات من الواقع العربي الإفريقي وازدياد التغلغل الصهيوني في أرجاء القارة السمراء، وزادت دهشة الحاضرين والمشاركين وشجونهم من الأرقام التي تشير إلى أن مكانة العالمين العربي والإفريقي في الاقتصاد العالمي لا تتعدى أربعة في المئة من الناتج القومي العالمي وأقل من أربعة في المئة من التجارة العالمية. وتكمن مشكلة الاستثمار في أن ٨٥٪ يذهب للنفقات الجارية و١٥٪ للمشاريع الاستثمارية.

يبدو أن هناك إجماعاً وتصميماً على ضرورة إحياء التعاون العربي الإفريقي مرة أخرى بعد أن شبع تراجعاً وجموداً، وإن قرار قمة الجزائر عام ٢٠٠٥ قد أقر أن يكون هذا الملف أحد البنود الأساسية في قمة الخرطوم الوشيكة نهاية هذا الشهر، ومن المتوقع أن تقرر هذه القمة عقد قمة إفريقية عربية في عام ٢٠٠٧، بعد انقطاع دام ثلاثين عاماً، وقد يكون لعبقرية المكان في السودان سحرها بهذا الصدد.

فالسودان كما يطلقون عليه أرض الأرواح، وإفريقيا المصغرة، فهو يعكس بشكل كامل صورة إفريقيا بتنوعها وحروبها ومشكلاتها وتمازجها العربي والإفريقي، ولذلك فإن أقرب الطرق لمخاطبة إفريقيا وإقامة الجسور بينها وبين العرب هو السودان الذي يجاور تسع دول معظمها إفريقية، وهذا لا يتسنى لأية دولة أخرى.

بين الحماس والواقع مسافة شاسعة في العلاقة العربية الإفريقية، فالاستثمار العربي في إفريقيا لا يتعدى ١٠% من مجموع الاستثمارات، والإعراض عن إفريقيا ما زال كبيراً لأن انبهارنا بالغرب وذيليتنا له تطغى على كل توجهاتنا نحو الآخرين، حتى بالغ بعضهم بالقول إننا إذا استمررنا على هذه الحال سوف نقف يوماً ونبكي على أطلال إفريقيا كما بكينا وذرفنا الدمع الساخن الغزير على الأندلس. فهل من يجرؤ ويقول توقفوا عن التأوه وتوصيف الواقع وانتقلوا إلى العمل والفعل، وبدلاً من أن نلعن الظلام كل يوم ألف مرة فلنشعل شمعة واحدة في سماء التعاون العربي الإفريقي الدامس.

أو كما يقول جبران خليل جبران: أما أنا فأقول لكم إن الحياة ظلمة حقاً إلا حيث يكون الحافز، كل حافز أعمى إلا إذا اقترن بالمعرفة، وكل معرفة هباء إلا إذا تحولت عملاً.

❖ الرئيس الأثيوبي جيرما ولد جورجيس

في مطلع الشهر الأول عام ٢٠٠٧ قدمت أوراق اعتمادي سفيراً غير مقيم للرئيس الإثيوبي جيرما ولد جورجيس، وكانت المرة الأولى التي أزور فيها أديس أبابا وأقدم أوراق اعتمادي سفيراً غير مقيم بعد تسميتي سفيراً لسورية لدى السودان.

تخيلت، وأنا أهبط من الطائرة في مطار العاصمة الإثيوبية، أن المدينة قفراء نقراء جرداء، وأن لا مكان للحضارة في هذا البلد، اكتشفت على الفور أن أديس أبابا، وتعني الزهرة النضرة، اسم على مسمى، وأن هناك فنادق راقية جداً، من مثل فندق شراتون أديس أبابا الذي نزلت فيه، وصاحبه رجل يمني متزوج من إثيوبية، والذي يمكن أن نعدّه واحداً من أرقى فنادق الشراتون في العالم. وأن حركة لتشييد فنادق أخرى تضاهي أحسن الفنادق العالمية قد بدأت، وأن مناخ المدينة معتدل طيلة أيام السنة حيث لا تتجاوز الحرارة في النهار طيلة العام ٢٨ درجة مئوية. والمدينة تقع على عدة هضاب وخضرتها تأخذ الألباب، والغابات تحيط بها من كل جانب، وفيها شوارع عريضة مثل شارع المطار المسمى بولي رود، وساحات واسعة جداً مثل ساحة الاستقلال في وسط المدينة، أما الناس فطيبون للغاية، والفقر المدقع يغلب على الجميع مع وجود طبقة أرستقراطية عالية الرغد والرفاهية، وبيوت الصفيح تنبت كالفطر حول أطراف المدينة وعلى مقربة من الفلل الحديثة.

ودون الدخول في التفاصيل فإثيوبيا كلمة معناها الوجه المحترق أو الأسمر، وكانت تسمى الحبشة، كما كانت موطن الهجرة الأولى للمسلمين الأوائل، وتبلغ مساحتها ما يزيد عن ١,٢٧ مليون كلم²، وعدد سكانها حوالي ٧٠ مليون نسمة، وتقع فوق أعلى هضاب في القرن الإفريقي، وينبع منها النيل الأزرق من بحيرة تانا التي تبعد عن العاصمة ٥٠٠ كم، وهو يشكل

٨٥% من مياه نهر النيل المكونة بشكل أساسي من النيل الأزرق والأبيض اللذين يلتقيان في الخرطوم عاصمة السودان.

نعود إلى تقديم أوراق الاعتماد حيث أن سورية لا ترتبط بتمثيل دبلوماسي بإثيوبيا منذ عشرات السنين، ويأتي اعتمادي سفيراً غير مقيم لدى إثيوبيا في إطار رغبة مشتركة من الطرفين لتحسين العلاقات وتطويرها بين البلدين، وفي إطار توجه سورية لتكثيف حضورها على الساحة الإفريقية.

ذهبت إلى الخارجية الإثيوبية في اليوم الثاني لوصولي، وقدمت نسخة من أوراق اعتمادي إلى وزير الدولة للشؤون الخارجية تقدا ألمو، واجتمعت مع مدير المراسم الذي شرح لي مراسم تقديم أوراق الاعتماد للسفراء في بلدهم، ورسم لي ذلك على الورق خطوة بخطوة، وأنه سيكون إلى جانبي غداً ليقدمني للرئيس.

وصلت القصر الجمهوري صباحاً في موكب رسمي، وقد استقبلني مدير التشريفات على باب القصر، وبعد ذلك عزفت فرقة القصر النشيد الوطني السوري، ثم النشيد الوطني الإثيوبي، فقمت باستعراض ثلة من حرس الشرف ودخلت القاعة الرئيسية، فوقفت على بعد عدة أمتار من الرئيس الذي وقف ليتسلم مني أوراق الاعتماد، وبعد أن قدمني مدير المراسم، ألقيت التحية على الرئيس جيرما وقرأت بالإنجليزية حوالي ١٥ سطراً تتضمن تحيات الرئيس بشار الأسد واهتمامه بإقامة التمثيل الدبلوماسي مع إثيوبيا، ومع انتهاء كلمتي أذن لي الرئيس بالجلوس إلى جانبه، وأعرب لي عن سروره بهذه الخطوة، واستذكر زيارة له إلى دمشق قبل مدة طويلة لحضور معرض دمشق، عندما كان مديراً لإحدى الجهات الاقتصادية، وهو معجب بدمشق وآثارها التاريخية والدينية، وأنه يحمل انطباعات طيبة عن سورية وعن العاصمة السورية الجميلة، وحمّلني في

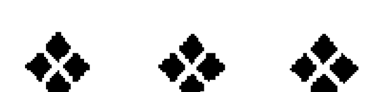
نهاية حديثه أجمل التحيات للرئيس الأسد، ثم قدم لي وزير رئاسة القصر وعدد من المسؤولين الإثيوبيين الذين يحضرون عادة مثل هذه المناسبات، ولم ينس في حديثه معي العلاقات العريقة بين السريان الأرثوذكس في سورية والأرثوذكس في إثيوبيا، وأن من نقل هذا المذهب إلى إثيوبيا هم الآباء السريان التسعة الذين قدموا من سورية.

الرئيس جيرما ولد جيورجيس من مواليد ١٩٢٤، ضخم الجثة، بالكاد يستطيع الوقوف طويلاً، وبدا عليه التعب لأنه تقبل قبلي أوراق اعتماد عدة سفراء، لذلك لم تستغرق مقابلتي معه أكثر من /١٠/ دقائق خرجت بعدها لأستقل سيارة المراسم التي وضع عليها العلم السوري في طريق عودتي للفندق، فالعادة أن لا يوضع علم بلد السفير إلا بعد تقديم أوراق اعتماده.

وعلمت أن رئيس الجمهورية في إثيوبيا لديه صلاحيات قليلة، لعل أهمها استقبال السفراء واستلام أوراق اعتمادهم، وأن الصلاحيات الفعلية هي لرئيس الوزراء ميلس زيناوي الرجل القوي في إثيوبيا، والذي قاد انقلاباً ناجحاً ضد نظام مانغستو هيلا ميريام، وله الكلمة الأولى والأخيرة في كل شيء في إثيوبيا، وهو الذي اتخذ قرار التدخل العسكري في الصومال لدعم الحكومة الانتقالية هناك، وبمعنى آخر فإن سلطات الرئيس جيرولد جورجيس شكلية للغاية، فعندما عقدت قمة الاتحاد الإفريقي العاشرة في أديس أبابا في نهاية الشهر الأول من عام ٢٠٠٨ كان زيناوي هو رئيس الوفد الإثيوبي، رغم أن هذه القمة يحضرها في الغالب رؤساء الدول الإفريقية، وزيناوي التقيته في بهو الاستقبال خلال حضوري قمة الاتحاد الإفريقي العاشرة بأديس أبابا، فسلمت عليه وعرفته بنفسي وأني سفير غير مقيم لسورية في إثيوبيا، فرحب بي وتمنى لي التوفيق، وهو رجل أصلع معتدل القامة جدي في كلامه وحركاته، ولشدة العداوة بين المعارضة الصومالية

وزينـاوي الـذي أرسـل جيـشاً جـراراً وصـل العاصـمة الـصومالية مقديـشو يطلقون عليه أبرهة الحبشي صاحب الفيل.

خرجت بانطبـاع أن إثيوبيا تملـك إمكانيـات ومـوارد كبيـرة علـى رأسـها الطاقات البشرية الهائلـة الـوفيرة والـسياحة الفريـدة، وأن هـذا البلـد الفقيـر الـذي لا يـصل متوسـط دخـل الفـرد فيـه إلـى /٥٠/ دولاراً شـهرياً يمكـن أن ينهض نهضة واسعة لو قيض له الراحة من الحـروب والنزاعـات التـي تحـيط به، وتلف القرن الإفريقي منذ سنوات طويلـة، ومـع ذلـك شـهدت في الزيـارات التاليـة لأديـس أبابـا أن النهـضة بـدأت وأن الانفتـاح أضـحى ملحوظـاً وأن مشـاريع استثمار كبـرى تتحـرك علـى الأرض الإثيوبية.



مواي كيباكي رئيس جمهورية كينيا

في نهاية شهر آذار ٢٠٠٧ تم تحديد موعد تقديم أوراق اعتمادي سفيراً غير مقيم لدى جمهورية كينيا ولدى وصولي صباحاً إلى مطار جوموكيناتا دهشت لحجم المطار واتساعه وعدد الطائرات الرابضة فيه وعندما دلفت إلى داخله تخيلت نفسي في مطار فرانكفورت وفعلاً يشكل هذا المطار ميناءً جوياً رئيساً في القارة الإفريقية فهو يربط عواصم القارة بعضها بعضاً والخطوط الجوية الكينية تعتبر من أقوى خطوط الطيران في إفريقيا، وفي طريقي إلى فندق الأنتركونتينيتال في قلب العاصمة الكينية لاحظت أن طقس المدينة لا يختلف كثيراً عن طقس لندن فالضباب يجثم عليها كل صباح ودرجات الحرارة في النهار لا تتجاوز ٢٦ درجة مئوية طيلة أيام السنة والمدينة كأنها في غابة تحيط بها البحيرات من كل جانب، والشوارع واسعة والأبنية في وسط المدينة شاهقة ويتجاوز بعضها /٦٠/ طابقاً والحدائق الغناء الفسيحة تملأ العاصمة، مكثت أنا وزوجتي في الفندق إلى اليوم التالي حيث ذهبت إلى وزارة الخارجية الكينية وقدمت نسخة من أوراق الاعتماد إلى مدير إدارة المراسم في الوزارة الذي تولى شرح خطوات تقديم أوراق الاعتماد للرئيس كيباكي، وأن المراسم المعتادة تتم في كينيا دون عزف النشيدين أو استعراض ثلة من حرس الشرف.

في اليوم التالي جاءتني سيارة المراسم إلى الفندق مع دراجتي شرطة المرور لاصطحابي إلى القصر الجمهوري وهناك دخلت بهو الانتظار فوجدت ما لا يقل عن ثمانية سفراء ينتظرون لتقديم أوراق اعتمادهم منهم ما هو

مقيم ومنهم ما هو غير مقيم فعرفت منهم سفير أوكرانيا في أديس أبابا وسفير تنزانيا وسفير إيطاليا وسفيرة كندا في أديس أبابا وسفير كوريا الجنوبية وسفراء آخرين من بعض الدول الإفريقية.

بدأ الدخول إلى القاعة الرئاسية حسب الأقدمية فكان دوري السابع حيث اصطحبني مدير التشريفات إلى قاعة كبيرة جلس فيها الرئيس في الوسط يحيط به وزير الخارجية وعدد من الوزراء والمسؤولين في القصر الجمهوري، بعد أن عرفني مدير المراسم أمام الرئيس ألقيت التحية وبدأت بقراءة خطاب من عشرين سطراً باللغة الإنكليزية يتضمن تحيات الرئيس بشار الأسد إلى الرئيس كيباكي ووجود رغبة مشتركة لإقامة تمثيل دبلوماسي بين سورية وكينيا وتطوير العلاقات الثنائية بما يخدم مصلحة البلدين والشعبين.

صافحت الرئيس وقدمت له أوراق الاعتماد فأذن لي بالجلوس إلى جانبه وبدأ يتحدث بغبطة وسرور حول هذه الخطوة على طريق إقامة العلاقات الدبلوماسية متمنياً أن تتوسع العلاقات اقتصادياً وثقافياً وحمّلني تحياته للرئيس بشار الأسد وتمنى لي التوفيق والنجاح في مهمتي ثم عرّفني على المسؤولين الحاضرين فصافحتهم وانصرفت إلى بهو الانتظار ثانية وبعد انتهاء جميع السفراء من تقديم أوراق اعتمادهم حضر وزير خارجية كينيا وتحدث إلى الجميع ووقف عند علاقة كل بلد مع كينيا وأشار في معرض حديثه إلى سورية ودورها في الشرق الأوسط وأهمية مواقفها بالنسبة لتحقيق السلام في المنطقة ثم رفع نخب الرئيسين كيباكي وبشار الأسد، ورجعنا جميعاً من حيث جئنا بعد امتطاء سيارات المراسم وعليها أعلام بلد كل سفير من الذين قدموا أوراق اعتمادهم.

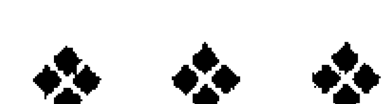
عدت إلى الفندق حيث كانت زوجتي غادة تنتظرني بفارغ الصبر فوجدتها عند باب الغرفة بعد أن سمعت أصوات زمامير شرطة المرور تدخل الفندق، فشرحت لها ما جرى معي وتحدثنا عن الرئيس الكيني الذي استقبلني بحفاوة ولاحظت أنه طاعن في السن يبلغ أكثر من /٧٦/ عاماً وقسماته إفريقية صارمة وقامته طويلة وصاحب بدانة وهو في رئاسة كينيا للمرة الثانية بعد أن نافسه في الولاية الثانية زعيم المعارضة رايلا أودنيغا ويعتبر ثالث رئيس لكينيا بعد الرئيس دانيل آرب موي وجوموكنيتا.

هنا أعود بالذاكرة إلى لقائي الأول مع السفير الكيني في الخرطوم الكولونيل أليجة ماتيبو قبل أشهر من تقديمي أوراق الاعتماد الذي قال لي إن الانتخابات الرئاسية في كينيا ستتم نهاية هذا العام وستكون معركة كبيرة وحاسمة لأن المعارضة تستعد لخوضها بما أمكنها من قوة.

وفعلاً جرت الانتخابات في أجواء عاصفة وكانت من أكثر الاقتراعات تنافساً في تاريخ كينيا فحصل كيباكي على أربعة ملايين و٥٨٤ ألفاً و٧٢١ صوتاً مقابل أربعة ملايين و٣٥٢ ألف و٩٩٣ صوتاً لخصمه رايلا أودنيغا الذي أتهم كيباكي فور صدور النتائج باللجوء إلى التزوير لإعادة انتخابه وانفجرت الاضطرابات وأعمال العنف في كينيا والتي ذهب ضحيتها أكثر من ألف قتيل وآلاف الجرحى وتم قمع المعارضين بقسوة شديدة وامتدت الأزمة لعدة أشهر توسط فيها كوفي عنان الأمين العام السابق للأمم المتحدة الذي أوجد تسوية تقوم على أن تشكل حكومة اتحاد وطني ويرأسها زعيم المعارضة أودنيغا الذي رفض في البداية وهاجم برنامج كيباكي الاقتصادي الذي وعد فيه بمكافحة الفساد ولكنه فشل ووعد برفع الأداء الاقتصادي لأن كيباكي يعتبر نفسه خبيراً اقتصادياً ويحظى باحترام أوساط الأعمال في

بلاده ولكنه فشل أيضاً إلى أن قبل أودنيغا رئاسة الحكومة وهدأت الأحوال لكن أعمال العنف التي اتخذت طابعاً قبلياً حاداً خلفت جروحاً عميقة في بلد كان يعد من أهدأ بلدان إفريقيا وأكثرها نمواً اقتصادياً ولا يستبعد أن تتجدد الاضطرابات فالنار لا زالت تحت الرماد وقسم كبير من الكينيين يعتقدون أن نتائج الانتخابات لم تكن نزيهة.

لقد غادرت نيروبي إلى الخرطوم وأنا متأثر بجمال هذه المدينة وتطور الحياة فيها والحركة والنشاط في مجال سياحة السفاري المشهورة في كينيا.



يوري موسفيني رئيس جمهورية أوغندا

استغرق تحديد موعد لتقديم أوراق اعتمادي سفيراً غير مقيم لدى جمهورية أوغندا وقتاً طويلاً تجاوز الخمسة عشر شهراً رغم أن الموافقة على ترشيحي لم تستغرق الشهرين، وعلمت أن الرئيس موسيفيني يتسلم أوراق اعتماد السفراء بفترات متباعدة وتقوم وزارة الخارجية الأوغندية بتجميع عدد من السفراء ليقدموا أوراق اعتمادهم في يوم واحد وذلك في القصر الجمهوري في مدينة عينتبي المدينة المجاورة للعاصمة الأوغندية كمبالا.

وفعلاً في أوائل النصف الثاني من شهر شباط عام ٢٠٠٨ غادرت الخرطوم إلى كمبالا عن طريق نيروبي على الخطوط الجوية الكينية التي تنظم رحلات يومية بين السودان وكينيا وتنظم أكثر من رحلة يومية بين نيروبي وكمبالا.

لم تستغرق الرحلة بين نيروبي وكمبالا أكثر من ساعة كان الطيران معظمه فوق بحيرة فكتوريا أكبر بحيرة للماء العذب في العالم تبلغ مساحتها حوالي ٩٠ ألف كم٢ وهي التي ينبع منها نهر النيل الأبيض وينتشر فيها ما لا يقل عن ٣٠٠٠ جزيرة معظمها مأهول بالسكان وتتشاطأ البحيرة مع ثلاث دول هي كينيا وأوغندا وتنزانيا ويصب فيها أنهر عديدة كما ينبع منها العديد من الأنهر أيضاً.

نزلنا في مطار عينتبي الدولي على شاطئ فكتوريا وسط ضباب كثيف تطلقه البحيرة إذ لا يوجد في العاصمة مطار لأن عينتبي لا تبعد أكثر من ٥٠ كم عن العاصمة كمبالا، وبعد أن خرجنا من المطار أشار لي المرافق إلى طائرة قديمة جاثمة بالقرب من مدخل المطار وقال هذه هي طائرة الخطوط الجوية الفرنسية الرحلة ١٣٩ التي اختطفها الفدائيون الفلسطينيون في الثاني من شهر تموز عام ١٩٧٦ من أجل إطلاق سراح جميع الأسرى الفلسطينين من السجون الإسرائيلية وحادثة اختطاف الطائرة من أشهر حوادث الاختطاف التي كانت تحصل في ذاك الوقت وقد دعم المختطفين الرئيس الأوغندي السابق عيدي أمين الذي قاد الانقلاب عليه الرئيس الحالي يوري موسفيني.

مكثت في فندق غلف كورس وهو فندق حديث وأنيق وسط العاصمة يملكه رجل أعمال هندي وبالمناسبة فإن الطبقة الغنية في أوغندا هم من الهنود الذين عملوا سابقاً في الجيش البريطاني الذي احتل تلك البلاد وظلوا فيها بعد رحيله، وقد مورس عليهم الاضطهاد في عهد عيدي أمين وتم تأميم جزء كبير من ممتلكاتهم انتقاماً لما ذاقه عيد أمين منهم أثناء خدمته العسكرية بأمرتهم قبل الاستقلال.

في اليوم الثاني لوصولي ذهبت إلى وزارة الخارجية الأوغندية وقدمت صورة عن أوراق اعتمادي لوزير الخارجية واجتمعنا أكثر من تسع سفراء بين مقيم وغير مقيم في وقت واحد لهذه الغاية وذهبنا جميعاً برتل من السيارات الرسمية من وزارة الخارجية الأوغندية في كمبالا إلى القصر الجمهوري في مدينة عينتبي التي تبعد ٥٠ كم، وهناك انتظرنا قليلاً في فندق إنكليزي عريق اسمه فكتوريا مطل إطلالة رائعة على البحيرة وبعدها صعدنا إلى القصر الجمهوري الذي يربض على تلة مطلة مواجهة لبحيرة فكتوريا والقصر فسيح ويوحي بالفخامة وقد كان مقراً للرئيس عيدي أمين وقام بعد

ذلك الرئيس الحالي موسيفيني بترميمه على أكمل وجه وقد لجأ عيد أمين إلى السعودية وتوفي هناك.

انتظرنا الرئيس أكثر من ٣ ساعات بعدها بدأ مدير التشريفات في القصر الجمهوري ينادي لكل سفير بالدور ليقوم باستعراض ثلة من حرس الشرف بعد عزف النشيدين الوطنيين وذلك في الساحة المقابلة لمدخل القصر وقد كان دوري السادس بين السفراء فاستعرضت حرس الشرف بمراسم كاملة ثم دخلت برفقة رئيس البرتوكول إلى القاعة المخصصة لاستقبال السفراء فقام بتقديمي للرئيس الذي كان يحيط به وزير خارجيته ووزيرة التعاون الدولي وبعد التعريف حييت الرئيس وألقيت كلمة بالإنكليزية لا تتجاوز /١٥/ سطراً فأذن لي الرئيس بالجلوس إلى جواره ورحب بإقامة العلاقات الدبلوماسية بين سورية وأوغندا وطرح بعض الأسئلة عن اقتصاد سورية والسياحة فيها وسأل عن عمر الرئيس بشار الأسد وعندما أجبته قال إنه ما يزال شاباً واستذكر لقاءه مع المرحوم الرئيس حافظ الأسد في طرابلس بليبيا في احتفال الفاتح من أيلول ووصفه بالرجل الثابت والمهيب، ودعا إلى توطيد العلاقات بين البلدين وترحيب أوغندا بتوسيع آفاق هذه العلاقات على مختلف الأصعدة.

خرجت من هذه المراسم بعد مقابلة شيقه مع الرئيس موسيفيني الذي يحكم يوغندا منذ عام ١٩٨٦ بعد أن أطاح بالرئيس عيدي أمين عندما كان وزيراً للدفاع وهو من الزعماء الأفارقة القدامى وقد تجاوز الخامسة والستين من العمر وله /٤/ أبناء وحاصل على بكالوريوس في العلوم السياسية والاقتصاد والقانون ومؤلف كتاب مذكرات العمل السياسي ويرأس الحزب الحاكم الذي يسمى حركة المقاومة الوطنية وسحنته إفريقية وملامحه صارمة طويل القامة ويقف وقفة عسكرية ثابتة كأنه لا يزال جنرالاً في الجيش.

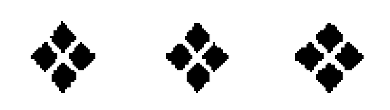
ومعروف عن الرئيس الأوغندي أنه من أبرز العاملين على الترويج للنزعة الإفريقانية وإنشاء إمبراطورية التوتسي للهيمنة على وسط إفريقيا يسانده بذلك الولايات المتحدة الأمريكية وتعتبر أوغندا في مقدمة دول الكومنولث وقد عقد في عاصمتها مؤتمر لدول الكومنولث وحضرته ملكة بريطانيا وكل يوغندي لديه الحق في الحصول على الجنسية البريطانية ويستطيع أن يدخل الأراضي البريطانية دون تأشيرة سفر.

أتيح لي أن أتجول في العاصمة كمبالا التي تنهض بسرعة وتتعدد فيها المنتجعات على بحيرة فكتوريا كما تكثر فيها البنوك والفنادق العالمية وتنشط بها الحركة السياحية ولا يحتاج القادم إليها إلى تأشيرة مسبقة حيث يمكن أن يحصل عليها في المطار وفي أطراف المدينة التي لا يتجاوز عدد سكانها المليون والنصف، تنتشر الأحياء الفقيرة وبيوت الصفيح ومحلات بيع الموز الأخضر الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للسكان مطبوخاً ومقلياً ومعداً بأشكال مختلفة وفي الآونة الأخيرة كثرت (المولات) وأغلب أصحابها من التجار الهنود القاطنين في أوغندا، أما على بعد ٩٠ كيلومتر عن كمبالا فهناك منطقة جنجا حيث منابع النيل الأبيض وشلالاته المدهشة ولقد أمضيت فيها سحابة يوم كامل كان من أمتع ما رأيت في زيارتي لأوغندا.

في طريق العودة توقفت في مطار نيروبي وجلست في قاعة كبار الزوار أنتظر الطائرة المغادرة إلى الخرطوم وكانت مفاجأة كبيرة عندما رأيت أمامي رجلاً غاية في الطول والنحافة ينتظر موعد الطائرة التي ستقله إلى الولايات المتحدة الأمريكية فبادرت للتعرف عليه فقال إنني لاعب كرة سلة من جنوب السودان وأقطن في الولايات المتحدة الأمريكية وعندما سألته عن طوله أجاب طولي ٢٢٨ سم وأحجز دوماً مقعدين في الطائرة: المقعد الذي أجلس عليه والمقعد الذي أمامي وكلفتني تذكرة القدوم والعودة من أمريكا إلى جوبا عاصمة جنوب السودان /١٠/ آلاف دولار أمريكي وعندما سألته عن نمرة

الحذاء الذي يلبسه قال /٥٨/ ولما وقفت إلى جانبه لم أصل إلى كتفه رغم أن طولي حوالي ١٨٠ سم ولما سألته عن طول زوجته قال لي إنها قصيرة مثلك وحدثني أن مقياس الجمال في جنوب السودان هو الطول وأن مهر المرأة يتناسب مع طولها وأن المهر هو عدد من البقرات والمرأة الطويلة يكون مهرها من البقرات أكثر من القصيرة وقد يصل إلى أكثر من مئة بقرة، وتشتهر قبائل الدينكا النيلية بأن لديها أطول قامات للرجال والنساء في العالم والسبب كما حدثني وزير جنوبي يقيم في الخرطوم يعود إلى اعتمادهم الرئيسي في الغذاء على الحليب وبخاصة حليب الأبقار والجواميس.

هذا الرجل هو مانوت بول من الجالية السودانية في الولايات المتحدة الأمريكية ويعتبر نفسه معارضاً للنظام في الخرطوم وتستفيد مؤسسات الإعلان الأمريكية من طوله النادر في إعلاناتها المختلفة ورغم دهشتي بهذا الطول حيث لم أره من قبل لم أنس أن أسأله هل هناك من هو أطول منك فقال نعم هناك شخص صيني طوله ٢٣٠ سم فقلت في نفسي سبحان الله في الصين يوجد أطول شخص في العالم..!!



ألفا عمر كوناري

رئيس جمهورية مالي الأسبق

لم أقابل ألفا عمر كوناري بصفته رئيساً لجمهورية مالي وإنما بصفته أميناً عاماً لمنظمة الاتحاد الإفريقي وكانت المقابلة في مقر الاتحاد بأديس أبابا أثناء تواجدي هناك في مطلع الشهر الأول من عام ٢٠٠٧ لمناسبة تقديم أوراق اعتمادي للرئيس الإثيوبي سفيراً لسورية غير مقيم لدى إثيوبيا.

مقر الاتحاد الإفريقي في أديس أبابا معلم بارز فهو من أكبر وأوسع الأبنية في العاصمة الإثيوبية وربما تفتخر هذه العاصمة بأنها مقر لاتحاد يضم /٥٦/ دولة إفريقية ويوفر مناشط وفعاليات عديدة للمدينة وخاصة عندما تعقد به اجتماعات وزراء خارجية تلك الدول أو رؤسائها في القمم الدورية.

شجعني لمقابلة كوناري سفير فلسطين في أديس أبابا آنذاك زيد أبو العلا الذي يتمتع بروح قومية عالية ويمتلك حساً أدبياً وشعرياً عكسه في كثير من الكتابات الأدبية والروايات الفلسطينية التي نشرها كما كان له الفضل في تعريفي بوزير الثقافة والسياحة الإثيوبي الأستاذ/ محمود الدرير الذي كان تواقاً لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين سورية وإثيوبيا وفرح فرحاً غامراً بتقديم أوراق الاعتماد وهو من المسلمين الأحباش يتكلم العربية الفصحى بطلاقة وقد درس الجامعة في دمشق وذكرني بأحياء دمشق القديمة وأنه سكن في زقاق الصخر طيلة سنوات دراسته في سورية وقد امتدح الشعب السوري وتقاليده العربية الأصيلة. وكان السفير الفلسطيني يقصد بهذا التشجيع أن تنضم سورية إلى عضوية الاتحاد الإفريقي بصفة

مراقب ويكون هناك حضور عربي في هذه المنظمة الإقليمية بخاصة أنها تضم ما يقارب ثلثي الأمة العربية من خلال عضوية الدول العربية في إفريقيا وقد ألمح لي أن هناك أكثر من أربعين دولة قد انضمت إلى هذا الاتحاد بصفة مراقب وأنه قد تم رفض طلب إسرائيل بالانضمام إلى الاتحاد الإفريقي وأن هناك قرارات هامة بالنسبة للقضايا العربية من مثل استرجاع الجولان ومزارع شبعا والأراضي الفلسطينية المحتلة.

دخلت مبنى الاتحاد الإفريقي المهيب وكان في استقبالي مديرة المراسم وصعدنا أدراج عريضة إلى بهو الانتظار حيث انتظرت بحدود /١٥/ دقيقة لتطل سكرتيرة كوناري بوجه بشوش تدعوني للدخول إلى مكتب الاستقبال لأواجه أمامي رجلاً طويلاً ضخماً يلبس اللباس التقليدي المالي بكوفية متميزة وقسمات إفريقية سمراء صارمة، بعد التحية عرفته بنفسي فأذن لي بالجلوس قبالته وهو لا يتكلم الإنجليزية ولكنه يفهمها وفصيح باللغة الفرنسية وخطيب مجلٍ فيها، نقلت له في البداية تحيات وتمنيات وزير الخارجية وليد المعلم وتقدير سورية لمواقف الاتحاد الإفريقي وبادلني كوناري مشاعر التقدير لمواقف سورية وجهودها في دفع عملية السلام في المنطقة، واستذكر علاقته بنائب الرئيس فاروق الشرع وأضاف أن قمة الاتحاد في دورته القادمة في نهاية الشهر الأول عام ٢٠٠٧ سوف يدعو فيها إلى إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للجولان وكافة الأراضي العربية المحتلة في مزارع شبعا وفلسطين وتبنى المبادرة العربية للسلام التي قررها مؤتمر القمة العربية في بيروت.

وبأسلوب غاية في الدبلوماسية أشار الرجل إلى أهمية أن تكون سورية عضواً مراقباً في منظمة الاتحاد الإفريقي ولمست منه ترحيباً إذا ما تقدمت الخارجية السورية بمثل هذا الطلب.

وجدتها سانحة مناسبة أن تنضم سورية إلى هذه المنظمة الإقليمية القارية الهامة لذلك عندما عدت إلى السفارة في الخرطوم نظمت على الفور محضر مقابلة مع ألفا عمر كوناري أرسلته إلى الخارجية بدمشق مقترحاً أن تنضم سورية إلى المنظمة كعضو مراقب وقد وجد هذا الاقتراح ترحيباً وتمت الموافقة عليه.

عندما وصلت موافقة دمشق على تقديم طلب الانضمام للاتحاد الإفريقي أرسلته بسرعة عن طريق إدارة الاتحاد الإفريقي في الخارجية السودانية وسرعان ما جاء الجواب بالموافقة على الانضمام فأرسلت الموافقة إلى دمشق حيث جاء اعتمادي ممثلاً لسورية لدى الاتحاد وحدد لي بعدها كوناري موعداً لتقديم هذا التفويض فذهبت إلى أديس أبابا لأقابل أمين عام منظمة الاتحاد الإفريقي للمرة الثانية في مكتبه، وكم كانت فرحته كبيرة بتحقيق هذه الخطوة بين سورية والاتحاد الإفريقي، والرجل الفارع الطول من مواليد عام ١٩٤٦ مشهور في عالم السياسة ومحنك ومشبع بالقيم الإنسانية، كرس نفسه للدفاع عن أحلام الشباب في بلاده لتحويل مالي إلى بلد يسوده العدل والتضامن والديمقراطية، وقد كللت نشاطاته السياسية في مالي بالنجاح في انتخابات الرئاسة التي أمكن تنظيمها في ضوء رحيل نظام موسى تراوري الدكتاتوري الذي سقط في ١٩٩١/٣/٢٦. وتسلم كوناري رئاسة مالي لمدة عشر سنوات إلى أن تسلم منصب الأمين العام للاتحاد الإفريقي عام ٢٠٠٢.

قدم معي أوراق الاعتماد للدكتور كوناري سفراء من بولونيا والفاتيكان وبريطانيا وكوريا الشمالية وإيطاليا وتحدث كوناري معنا بشكل جماعي حديثاً مطولاً كعادته وعرج على سورية مرحباً بانضمامها إلى عضوية الاتحاد الإفريقي وأشار إلى دورها الهام في عملية السلام في الشرق الأوسط وتمنى نجاح سورية في عقد القمة العربية العشرين بدمشق.

لقد قابلت الرجل للمرة الثالثة عندما دعيت لحضور مؤتمر القمة الإفريقية العاشرة في أديس أبابا نهاية الشهر الأول عام ٢٠٠٧ وقد كان المتحدث الأول في هذه القمة متميزاً بلباسه المالي التقليدي وبكوفيته التي لا تفارق رأسه الضخم، بقي يخطب بالفرنسية الفصحى شفهياً أكثر من ساعة ونصف والرؤساء الأفارقة كلهم آذان صاغية لهذا الرجل الذي سحرهم ببيانه الرفيع واستيعابه لهموم إفريقيا التي لا تعد ولا تحصى وأشار إلى أهمية أن يتعلم الأفارقة اللغة العربية ليتواصلوا مع العالم العربي المجاور لهم وكذلك الجزء العربي في إفريقيا ودعا إلى لغة إفريقية موحدة هي اللغة السواحلية كي يتحقق الاندماج الإفريقي المنشود وختم كلمته بالرجاء أن يقبل الرؤساء اعتذاره عن التجديد له لمنصب الأمين العام للاتحاد لظروفه الخاصة وفعلاً تم ذلك في نهاية القمة حيث انتخب وزير خارجية موزامبيق جان بيونج بدلاً منه وقبل أن يغادر منصبه وجهت له الخارجية السورية الدعوة لحضور القمة العربية العشرين في دمشق أواخر آذار ٢٠٠٨ فحضرها وقد استمعت إلى خطابه أيضاً بالفرنسية فيها، لقد ختم الرجل حياته الرسمية الحافلة بالعمل والعطاء وربما ذهب ليتفرغ إلى أعمال أخرى حاملاً ذخيرة كبيرة من الأحلام المثالية حول غد أفضل لإفريقيا المثقلة بالهموم والقضايا الشائكة..



أسياس أفورقي رئيس دولة إريتريا

بعد انتظار طويل يقارب السنة على موافقة وزارة الخارجية الإريترية على اعتمادي سفيراً غير مقيم لسورية لدى دولة إريتريا تم تحديد موعد تقديم أوراق الاعتماد للرئيس أسياس أفورقي في نهاية الشهر الخامس من عام ٢٠٠٧، وغادرت الخرطوم على متن الخطوط الجوية الإريتيرية التي لا تملك سوى طائرة أو طائرتين ولديها رحلة واحدة فقط كل أسبوع.

ذهب معي على الرحلة نفسها كل من سفير إيران وسفير أندونسيا في الخرطوم لتقديم أوراق الاعتماد أيضاً وعند وصولنا إلى أسمرا وجدنا عدداً آخر من سفراء الدول وخاصة من الدول الإفريقية قد قدموا لنفس الغاية أي الطريقة ذاتها المتبعة في تجميع عدد من السفراء لأجل أن يقدموا أوراق اعتمادهم في يوم واحد.

لم تستغرق الرحلة بالطائرة من الخرطوم إلى أسمرا أكثر من ساعة فالحدود الإريتيرية قريبة من العاصمة الخرطوم والمواطنون من الطرفين يتواصلون ويتداخلون وينتقلون بواسطة الرواحل والسيارات، والعاصمة الإريتيرية تقع على ارتفاع ما يزيد عن ألفي متر عن سطح البحر ومناخها معتدل طيلة أيام السنة لا تتجاوز درجة الحرارة /٢٧/ درجة ويشعر الزائر للوهلة الأولى بنقص في الأوكسجين والمدينة مبنية على الطراز الإيطالي وتنتشر المقاهي على الأرصفة فتشعر وكأنك في مدينة إيطالية.

في اليوم التالي كان الموعد مع الرئيس أفورقي فجاءت سيارات مراسم

القصر الجمهوري إلى فندق الأنتركونتيتال الذي نزلنا به واستقل كل سفير سيارة ومعه مرافق من الخارجية وقد رافقني منذ وصولي إلى أسمرا دبلوماسي إريتيري بمستوى سفير اسمه فاسيل أصبح سفيراً لبلاده فيما بعد في القاهرة درس في دمشق ويعرف سورية جيداً ويتذكر أيامه هناك في أحياء دمشق، وضمن إجراءات مراسمية غاية في البساطة ودون أي عزف للنشيد الوطني تم استقبالنا بالتتالي لتقديم أوراق الاعتماد للرئيس يصطحبنا مدير مراسم القصر، دخلت إلى القاعة وقام مدير المراسم بتقديمي للرئيس فألقيت التحية ونقلت له تحيات الرئيس بشار الأسد والرغبة في إقامة تمثيل دبلوماسي بين البلدين وإمكانية تطوير العلاقات بما فيه مصلحة الشعبين والدولتين، بعد أن سلمته أوراق الاعتماد أذن لي بالجلوس إلى جواره وبدأ حديثه بالترحيب والتهنئة باختياري سفيراً لسورية لدى دولة إريتريا وأنه يقدر هذه الخطوة من قبل سورية ويرحب بها وقال لدينا رغبة منذ فترة طويلة أن تتحقق هذه الخطوة لأن لسورية مكانة هامة في الشرق الأوسط كما لها فضل كبير على الإريتيريين نظراً لما قدمته للشعب الإريتري من دعم ومساندة في الأوقات العصيبة وأن معظم الكوادر الإريتيرية تلقت تعليمها في سورية واستذكر إقامته في دمشق قبل أربعين عاماً وأنه يحمل أجمل الانطباعات عنها وجال الرئيس جولة أفق سياسية مستفيضة حول الأوضاع الإقليمية والدولية وكيف تمارس الولايات المتحدة الضغوط الشديدة على إريتريا، ووجه في نهاية حديثه التهنئة للرئيس بشار الأسد على استفتاء الشعب السوري له لولاية دستورية ثانية ولقد منحني الرئيس أفورقي وقتاً أطول من أي سفير آخر مما يدل على اهتمامه بإعادة العلاقات الوثيقة مع سورية.

الرئيس أفورقي رجل أسمر طويل القامة صارم القسمات قوي الملامح أصبح رئيساً لدولة إريتيريا بعد إعلان الاستقلال عام ١٩٩١م وسط

صراعات مريرة بين قوى وفصائل سياسية متنافرة على الساحة الوطنية الإريتيرية حيث أن كل قوة تجد في نفسها الحق أن تستولي على السلطة بعد أن شاركت في القتال من أجل تحرير إريتريا.

وفي ضوء ذلك مازالت إريتريا تعيش صراعات متعددة والضغوط الخارجية والنزاعات مع دول الجوار مثل إثيوبيا وجيبوتي وسابقاً مع السودان شكلت ضغوطاً على الحياة العامة للبلاد واستنزفت قدرات هذا البلد الذي تربو مساحته على ١٢٣ ألف[٢] ويحظى بموقع جغرافي متميز في القرن الإفريقي ولديه أطول ساحل على البحر الأحمر بعد المملكة العربية السعودية حيث يزيد ساحله على ١٠٠٠ كم وتستحوذ إريتريا على عشرات الجزر على شكل أرخبيلات في البحر الأحمر.

وعندما حضرت مؤتمر الاتحاد الإفريقي العاشر في أديس أبابا نهاية شهر كانون الثاني عام ٢٠٠٨ كان مقعد إريتريا شاغراً بسبب النزاع الطويل المرير بين البلدين والاتهامات المتبادلة التي زادتها الأزمة الصومالية ودخول القوات الإثيوبية إلى الصومال تعقيداً حاداً ولا أتوقع أن تهدأ الأحوال في القرن الإفريقي على المدى المنظور حيث تعتبر إريتريا في وسط العاصفة من خلال صراعات ونزاعات هذا القرن الملتهب منذ عقود وهو يعاني من مشكلات الفقر والجوع والجفاف أكثر من أية منطقة في العالم.

تعرفت في أسمرا على عدد من سفراء الدول العربية المقيمين هناك وأبرزهم السفير السعودي والسفير المصري والجزائري واليمني وكانوا كرماء محبين للعمل العربي المشترك ويعيشون حياة مشتركة وفي تعاون تام. وقد نظمت لنا إدارة المراسم جولة في المدينة وحولها وشاهدنا أحياء فقيرة تحيط بقلب العاصمة الصغيرة بينما تكثر الملاهي والمقاهي والمطاعم والفنادق الأنيقة في وسط المدينة.

عدت إلى الخرطوم وأنا أحمل أجمل الذكريات عن هذه المدينة الوادعة وعن الشعب الإريتيري البسيط المتطلع إلى غد أفضل من خلال تنمية اقتصادية شاملة تنشله من مهاوي الفقر والتخلف، لكن هل هناك تنمية أو اقتصاد متطور دون حلول للمعضلات السياسية الداخلية والخارجية..!!

❖ ❖ ❖

إفريقيا وأزمة الغذاء العالمية

أكثر قارات الأرض تأثراً بالكوارث التي تصيب العالم القارة الإفريقية من الاحتباس الحراري وتغييرات المناخ العالمي إلى الأزمات الاقتصادية ولعل أزمة الغذاء العالمي وارتفاع أسعار النفط الجنوني وغلاء المواد الغذائية قد أصابت مقتلاً في إفريقيا التي يكفيها ما بها من أزمات وخاصة مشكلة المشاكل الجوع فكيف إذا أضيف إلى هذه المشكلة أزمة الغذاء العالمية حيث بدأت نواقيس الخطر تدق في كل مكان بشأن هذه الأزمة ومعها ارتفاع أسعار السلع الغذائية بشكل غير مسبوق على المستوى العالمي ومعظم جوانب الأزمة يعود إلى استخدام محاصيل الحبوب من قمح وذرة وغيرها للوقود الحيوي، فسياسة الوقود الحيوي التي أطلقتها الولايات المتحدة الأميركية بديلاً عن توقيعها على معاهدة كيوتو للحد من انبعاث الغازات المسببة للاحتباس الحراري فجرت أزمة مدوية بدأت تعصف بدول العالم وهي أزمة الغذاء وارتفاع الأسعار الجنوني التي ضربت حتى الآن /٣٥/دولة في العالم، وأضافت /١٠٠/ مليون جائع إلى ملايين الجائعين السابقين في أنحاء المعمورة..

يقول المقرر الخاص حول الحق في الغذاء في الأمم المتحدة جون زيجلر: «إنه عندما تتبع سياسة الوقود الحيوي في أميركا بفضل الإعانات المالية التي تقدر بستة مليارات دولار للوقود الحيوي الذي يستنزف كميات كبيرة من الذرة، فإن ذلك يصبح أساساً لجريمة ضد الإنسانية لإرضاء الرغبة الشديدة في الحصول على الوقود».

ونتيجة هذه السياسة صارت ملايين السيارات تستخدم الوقود الحيوي ففي البرازيل وحدها أكثر من مليون سيارة تسير بالوقود الحيوي وكل خزان سيارة من هذا الوقود ولمرة واحدة يكفي إطعام شخص لمدة عام كامل.

ويتوقع زيجلز أن تؤدي الأزمة الأخيرة الناجمة عن ارتفاع أسعار السلع الغذائية الرئيسة إلى الاتجاه نحو فترة طويلة من أعمال الشغب والصراعات وموجات من الاضطرابات الإقليمية التي لا يمكن السيطرة عليها وتتسم بحالة من اليأس لأكثر الفئات السكانية تضرراً.

وكان تقرير قد أعده مئات الخبراء في شؤون البيئة العام الماضي قد أظهر أن الفقراء أول من سيدفع الثمن نتيجة التغيرات المناخية وأن ما لا يقل عن ٢٥٠ مليون شخص في إفريقيا ستعصف بهم هذه التغيرات بحلول عام ٢٠٢٠ وأن الزراعة التي تعتمد على مياه الأمطار سوف تنخفض بنسبة ٥٠% وأن الحاصلات الزراعية في شرق وجنوب ووسط آسيا قد بدأت تنخفض إلى ما دون ٣٠%.

ويوضح مسؤول الأمم المتحدة جون زيجلر أن العائلات في الدول الغربية تنفق ما بين ١٠ و٢٠% من ميزانيتها على الغذاء أما في الدول الأكثر فقراً فإنها تخصص ما بين ٦٠ و٩٠% من ميزانيتها على الغذاء والمسألة بهذا الشكل مسألة حياة أو موت.

ويضيف هذا المسؤول الدولي: أنه قبل بدء الأزمة كان يموت طفل واحد دون العشر سنوات كل خمس ثوان في العالم ويتعرض ٨٥٤ مليون شخص لسوء التغذية بشكل خطير، فإذا أضفنا إلى ذلك كله الأزمة الحالية التي بدأت تضرب بقوة دول العالم الأكثر فقراً نكون أمام مذبحة وشيكة..

لا أعتقد أن باحثاً أو محللاً اقتصادياً يخالجه الشك في أن أزمة الغلاء والغذاء المتفاقمة الآن في العالم هي من نتائج سياسات العولمة

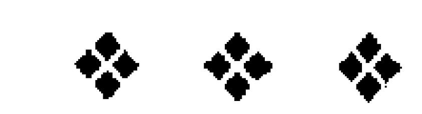
الاقتصادية وما أدت إليه من آثار اجتماعية سلبية خطيرة خصوصاً على السكان الفقراء، في النصف الجنوبي والشمالي من العالم وقد زاد الطين بلة سياسة الإدارة الأميركية في شن الحروب والغزوات وتدمير دول بكاملها كالعراق وأفغانستان والانسحاب من معاهدة كيوتو عام ٢٠٠١ للحد من ظاهرة الاحتباس الحراري.

لقد جلبت هذه السياسة الدمار والخراب للبشر والحجر والشجر في العديد من مناطق العالم وانتهت أخيراً إلى إصابة الاقتصاد الأميركي نفسه بالكساد والجمود وتصدير أزماته إلى الاقتصاد العالمي رفعاً لأسعار البترول والسلع الغذائية الأساسية واضطراباً في الأسواق المالية العالمية..

لا يختلف اثنان أن سوء السياسات للدول الكبرى وللدولة الأقوى في العالم بشكل خاص كانت وراء توالي الأزمات الاقتصادية العالمية بآثارها الاجتماعية الوخيمة، وأن التغيرات المناخية كانت نتيجة لهذه السياسات وليست سبباً، ولكن فات أصحاب سياسات الجشع والهيمنة واستنزاف موارد الدول الأخرى أن حمى ارتفاع الأسعار في معظم السلع المعيشية ولا سيما الغذائية بما فوق طاقة الفقراء ومحدودي الدخل بات أمراً خطيراً وينذر بكوارث تهدد السلم الأهلي والتوازن الاجتماعي والاستقرار السياسي على مستوى المجتمعات الوطنية والإقليمية والعالمية وأن تفاقم مشكلات الجوع والفقر والبطالة لن تكون آثارها محدودة بحدود الدول التي تعاني منها وإنما ستكون منبعاً للخطر والشرور على دول العالم أجمع وأمنها واستقرارها..

أمام هذه الأزمات الاقتصادية المتوالية عالمياً فإن الأزمة الغذائية في الوطن العربي ستزداد اشتداداً وسيكون هناك ارتفاع جنوني في أسعار السلع الغذائية إذا لم يتم بسرعة تفعيل استراتيجية عربية متكاملة للتنمية، ولعل من أهم الأولويات هو وضع سياسات تنموية إنتاجية توجه الاستثمارات

العربية في مجالات الإنتاج الغذائي أولاً للسوق العربية فالأزمة الغذائية في الوطن العربي ليست أزمة في الموارد الطبيعية ولا بسبب التزايد السكاني أو العجز المالي بل الأزمة في أساسها ناجمة عن فشل السياسات الاقتصادية والتقصير في الاهتمام بالتنمية الزراعية والأمن ا لغذائي العربي، فهل تكون الأزمة الحالية دافعاً لدى الحكومات العربية لوقف الاستمرار في السياسات الاقتصادية التي سمحت للعولمة الرأسمالية المتوحشة باستنزاف طاقات العرب وثرواتهم؟ وهل يكون المشروع الثلاثي الإماراتي - المصري - السوداني لزراعة /٦/ ملايين فدان في السودان بالقمح والأرز بداية الطريق لفتح أبواب المستقبل للأمن الغذائي العربي.



إفريقيا ومشكلة الاحتباس الحراري

كان ينقص سكان إفريقيا وفقراء العالم الذين سحقتهم الحروب الاستباقية وغير الاستباقية أن يأتي آخر تقرير أعده مئات الخبراء الدوليين في شؤون البيئة ليؤكد أن الفقراء في العالم سيكونون الأكثر تأثراً بالتغيرات المناخية. ولعل المفارقه الغريبه أن المتسببين بتلوث البيئه وهم الدول الصناعيه سيتضررون أقل من هذا التلوث بمعنى آخر من يلوث أقل يتضرر أكثر والعكس صحيح وما حدث في تسونامي وغيره من التسوناميات المتلاحقه يشير إلى ذلك بكل وضوح لأن الفقراء لا يملكون وسائل الحماية التي يملكها الأغنياء.

ورغم أن التقرير أثار رعباً وهلعاً ما بعده هلع لدى سكان المعمورة في أربع جهات الأرض إلا أنه أظهر أن الفقراء أول من سيدفع الثمن أيضاً لأن النقص في المواد الغذائية والمياه وزيادة مخاطر الفيضانات ستصيب أول ما تصيب مليارات البشر الذين كانت الطبيعة ملاذهم وسر استمرار حياتهم ووجودهم على الأرض، ولذلك ذكر التقرير أن أول نتيجة رئيسية للتغيرات المناخية ستعصف بما لا يقل عن ٢٥٠ مليون شخص في أرجاء إفريقيا بحلول عام ٢٠٢٠ وستنخفض الزراعة التي تعتمد على مياه الأمطار بنسبة ٥٠ بالمئة في بعض مناطق القارة الإفريقية بحلول عام ٢٠٢٠ أيضاً.

والحال لن يكون بأفضل في شرق وجنوب شرق ووسط وجنوب قارة آسيا حيث مقدر أن تنخفض الحاصلات الزراعية إلى ما دون ٣٠ بالمئة.

ولعل الأسوأ هو ما حصل وما يحصل من تهديد لعشر مناطق وأجناس حية تعتبر من روائع الطبيعة ومن بينها غابات الأمازون والكتل الجليدية في جبال الهملايا ونمور البنغال حيث إن ٦٠ بالمئة من غابات الأمازون التي تحوي ٤٠ ألف نوع من النباتات و٤٣٧ من الثدييات ستتحول إلى سهول مقفرة.

وفي صحراء شيواوا الممتدة بين المكسيك والولايات المتحدة فإن ٣٥٠٠ نوع من النباتات والحيوانات النادرة مهددة بالانقراض.

ومن غير الدخول في تفاصيل ٢٩ ألف معلومة شملها التقرير فإن الصرخة التي أطلقتها لارا هاتسن المسؤولة العلمية عن برنامج المناخ في الصندوق العالمي للطبيعة تلخص الوضع بوضوح شديد عندما قالت: «من السلاحف إلى النمور ومن صحراء شيواوا إلى الأمازون.. كل روائع الطبيعة هذه مهددة بفعل الاحتباس الحراري الذي يهدد كذلك احتياطي المياه العذبة على الأرض».

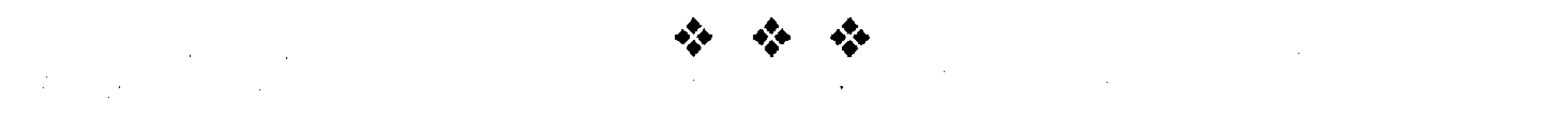
وإذا كانت كل النداءات والصرخات ومئات التقارير لم تلق آذاناً صاغية لدى الأكثر تسبباً في تخريب الطبيعة وتدمير البيئة وهم أغنياء العالم أو الدول الصناعية الكبرى وفي المقدمة الولايات المتحدة التي انسحبت من معاهدة كيوتو عام ٢٠٠١، فهل يكون التقرير الأحدث جرس الإنذار الأخير بعد أن بلغ السيل الزّبى وسجلت إدارة شؤون البحار والطقس الأميركية أن الشتاء الحالي في نصف الكرة الأرضية الشمالي كان الأدفأ منذ بدأ تسجيل درجات الحرارة قبل ١٢٥ عاماً وأن خبراء الطقس يتوقعون أن يكون عام ٢٠٠٧ الأشد حرارة على الإطلاق حين بدأ تسجيل درجات الحرارة؟

وباعتبار أن الولايات المتحدة الأميركية مسؤولة عن انبعاث النسبة الأكبر من الغازات المسببة لظاهرة الاحتباس الحراري فإن الرئيس بوش الذي رفض سابقاً وضع معايير ملزمة لانبعاث الغازات الضارة يواجه الآن

غضب العالم وغضب الأميركيين أيضاً الذين يطالبونه أن يتخذ موقفاً من أجل الحد من انبعاث الغاز ووضع حدود ملزمة بشأن ذلك فهل يستخف بوش بهذا الأمر الذي يقرب موعد نهاية الحياة على كوكب الأرض كما استخف ويستخف بكل المظاهرات والمسيرات والأصوات المطالبة بإنهاء احتلاله للعراق ووقف آلة العدوان والدمار والقتل في الشرق الأوسط؟

ويبدو أنه ليس من المصادفة بمكان أن تكون الظاهرتان الأخطر على حياة البشر في الوقت الراهن تنبع من مصدر واحد ومن سياسة واحدة آلت على نفسها أن تعرقل معالجة ظاهرة الاحتباس الحراري وأن تكوي مناطق شاسعة من العالم بنيران الحروب المدمرة العدوانية التي لا نهاية لها.

لكن إذا غابت عن أنظار المتلاعبين بمصير العالم التداعيات الكارثية لسياساتهم فإن عليهم أن يعلموا أن الخطر لن يستثني أحداً وأن شعوب الأرض لن تسكت عنهم إلى ما شاء الله، فساعة القيامة التي صنعتها نشرة علماء الذرة الأميركية تشير عقاربها إلى منتصف الليل إلا خمس دقائق الآن فماذا يستطيع العالم أن يفعل ولات ساعة مندم...!!



على ضفاف بحيرة فكتوريا

عندما وقفت أنظر إلى تدفق النيل الأبيض من بحيرة فيكتوريا كانت شلالات بوجا غالي تهدر في بداية الوادي المتصدع راسمة في الأفق لوحة مائية خارقة الجمال، ففاجأني صديقي الذي صحبني من العاصمة الأوغندية كمبالا بالقول: إن كل نقطة مياه تراها تخرج من البحيرة تحتاج في رحلتها للوصول إلى بحيرة ناصر في السد العالي بمصر إلى ثلاثة أشهر.

وتحتاج إلى أكثر من أسبوعين من السير لتصب في البحر الأبيض المتوسط عند الإسكندرية. هنا في مدينة جنجا الأوغندية التي تقع على شاطئ بحيرة فكتوريا تبدأ رحلة النيل العظيم إلى الشمال قاطعاً مسافة ٦٦٥٠ كم ليصب في البحر ويكون أطول نهر في العالم متنافساً مع نهر الأمازون الذي يبلغ طوله ٦٤٠٠ كم ولكنه أغزر من النيل ومن أي نهر آخر وبما لا يقاس، إلا أن معجزة النيل تكمن في ولادته من بحيرة فيكتوريا التي تعد أعظم بحيرة في إفريقيا وأوسع بحيرة مدارية في العالم وثاني بحيرة للماء العذب بعد بحيرة ميتشيغان في الولايات المتحدة الأميركية.

على شواطئ بحيرة فكتوريا في مدينة عينيبتي الأوغندية القريبة من العاصمة كمبالا رأينا البحيرة بلا نهاية فهي تمتد على مساحة ٦٨٨٠٠ كم٢ وتصل أعماقها إلى ٨٤ متراً وطولها ٣٣٧ كم وعرضها ٢٥٠ كم وتختزن ٢٧٥٠ كم مكعب من المياه العذبة ويبلغ عدد الجزر المنتشرة داخلها ٣٠٠٠ جزيرة كما يبلغ طول شاطئها ٣٤٤٠ كم وتطل عليها ثلاث دول هي تنزانيا

وكينيا وأوغندا وتستحوذ أوغندا على القسم الأكبر من البحيرة حيث تشكل المياه ٤،١٥% من مساحة أوغندا البالغة ٢٣٦,٠٤٠ كم٢.

تعد بحيرة فكتوريا، كما أبلغني صديقي، البحيرة الأكثر شباباً من جميع بحيرات العالم فقد تشكلت قبل ٤٠٠,٠٠٠ سنة وحصل فيها الجفاف ثلاث مرات بعد تشكلها في العصور الجليدية وكان آخر جفاف لها قبل ٣٠٠،١٧ سنة إلى قبل ٧٠٠،١٤ عام حيث تكونت من جديد وبقيت حتى الآن وأول من اكتشفها التجار العرب الذين كانوا يبحثون عن الذهب والعاج كما أن العلامة الجغرافي العربي الإدريسي أول من رسم لها خريطة دقيقة عام ١١٦٠ ميلادية. ويتابع صديقي المسحور بالبحيرة حديثه أن أول مكتشف أوروبي للبحيرة كان جون هاننغ سبيكي الإنكليزي الجنسية عام ١٨٥٨ أثناء رحلته إلى أواسط إفريقيا وهو الذي أطلق على البحيرة اسم ملكة إنكلترا آنذاك فكتوريا.

ولم يكن صاحبي وحده المسحور بالبحيرة فقد سبقه ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق الذي كتب عام ١٩٠٧ عندما كان مراسلاً حربياً مع الجيش البريطاني الذي حاول أن يبسط سيطرته على بلدان حوض النيل قائلاً: في بلاد السافانا لا حدود للطبيعة العذراء ولا للطيور وأنواع الحيوانات التي تعيش فيها ووصف صعوده إلى أعالي النيل بوساطة قارب يعمل بالمجاذيف بأنه رحلة إلى عالم الخيال.. كما قال في إحدى رسائله الصحفية أنه تابع رحلة السفاري التي قام بها تيودور روزفلت عام ١٩٠٩ وهي رحلة صيد طويلة تكلف بأسعار هذه الأيام أكثر من ٨،١ مليون دولار.

لقد كان تشرتشل المراسل الحربي غزير الإنتاج بالرسائل الصحفية التي رصدت وقائع تحركات الجيش البريطاني في حوض النيل وانتهى به الأمر إلى تأليف كتاب سماه حرب النهر كرسه لمعارك الإنكليز ضد الثورة المهدية في السودان، اعترف فيه أن السلاح الحربي المتطور للجيش

الإنكليزي لم يستطع أن يكسر شكيمة المقاتلين السودانيين الذين لم يكونوا يملكون سوى السيوف والمعاول والرماح.

وأكثر المأخوذين بسحر البحيرة وأنهارها كانت العائلة المالكة الإنكليزية التي جاءت إلى المنطقة برحلات عدة ولاسيما إلى منطقة الشلالات في مورشيسون وأهم هذه الزيارات كانت لأمير ويلز عام ١٩٣٠ وللملكة الأم عام ١٩٥٩، وحديث التاريخ عند صاحبي لا ينتهي ففي مطعم جميل يشرف على سد نالوبالي بالقرب من مدينة جنجا جلسنا نأكل أشهر أنواع الأسماك التي تعيش في بحيرة فكتوريا وهي أسماك طالبي. أكمل رواياته عن أوغندا ومنابع النيل والمحميات الطبيعية في المنطقة التي تشغل آلاف الكيلومترات المربعة فقال إن شلالات البحيرة الكثيرة سحرت مخرجي الأفلام السينمائية وخاصة شلالات نيل مورشيسون التي جسدها جون هوستون بأشهر أفلامه في أميركا بعنوان ملكة إفريقيا، وأضاف: الزائر الأقل حظاً إلى هذه المنطقة كان ارنست همنغواي صاحب رواية البحر والعجوز الذي اصطدمت طائرته بأسلاك التلغراف القديمة ومنعته هو وزوجته من متابعة الرحلة في غابات البحيرة.

ومع تراقص مياه الشلالات أمامنا خَطَرَ لي أن أسأل صاحبي لماذا أطلقوا على النيل الأبيض هذه التسمية حيث هناك النيل الأزرق الذي ينبع من بحيرة تانا في أواسط أثيوبيا ويلتقي النهران في منطقة المقرن وسط الخرطوم، فقال انظر.. الأمر بسيط للغاية كيف ترى الشلالات المتدفقة بقوة تعمل في الماء، إنه الزبد الأبيض الذي يسير في سرير النهر طويلاً وفي الشلالات الأعظم في نيل موشيسون تسير المياه لمسافة ٨٠ كم وهي بيضاء اللون كالزبد نتيجة قوة الشلالات وسرعتها، ويحافظ النهر على هذا اللون حتى يلتقي مع النيل الأزرق في الخرطوم حيث يبقيان لمسافة عدة كيلومترات قبل أن يمتزجا بلون واحد وبنهر واحد ينطلق باعثاً النماء في سهوب السودان وأرض الكنانة في دورات الحياة المتجددة.

النيل في أزمات السودان

يوافقني الرأي معظم المتابعين أن إسرائيل تترقب أية سانحة للانقضاض على مياه النيل فهو حلم أسطوري يراودها منذ ما قبل قيامها ولذلك تراها تعمق الأزمات بين دول حوض النيل وتثير الفتن بين الحين والآخر بين شمال السودان وجنوبه وهكذا نجد أنه بعد أن لاحت في الأفق حلحلة أزمة دارفور وتم إقفال قضية شرق السودان، طفت على السطح فجأة مسألة حادة جداً بين شريكي الحكم في السودان.

وأضحت اتفاقية السلام الموقعة في نيفاشا قبل عامين بين الشريكين مهددة بالسقوط مع احتمالات التوتر والتصعيد بين الشمال والجنوب، إن لم نقل احتمالات العودة إلى الاحتراب والانفصال التام رغم تصريحات كبار المسؤولين من الطرفين باستبعاد هذه الاحتمالات.

لا يمكن فهم هذه الأزمة الحادة والعاصفة وغير المسبوقة بين شريكي الحكم من خلال العوامل الداخلية أي الاتهامات المتبادلة حول القضايا المعلقة وعدم التزام كل طرف بما نصت عليه اتفاقية نيفاشا ومنها بشكل أساسي قضية الحدود في منطقة أبيي وتقاسم الثروة النفطية وسحب القوات المسلحة من الطرفين في المواعيد المحددة في الاتفاقية.

فهذه العوامل بين أخذ ورد وشد وجذب طوال العامين الماضيين ومفتوحة نحو إمكانية التفاهم والتوافق على أرضية الحوار والتفاوض ولم

تشكل قطيعة أو تعليق أو تجميد المشاركة في الحكم كما حصل في الآونة الأخيرة.

وفي الاجتماعات الدورية للشريكين التي عقدت في الخرطوم أكثر من مرة كانت تشكل لجنة أو لجان لتقريب وجهات النظر حول المسائل العالقة وكانت التصريحات من الطرفين تؤكد على الالتزام التام باتفاقية نيفاشا والتمسك بنصوصها وكنا نسمع من كبار المسؤولين في الشمال والجنوب أن هناك تصميماً على تجاوز هذه العقبات وأن لا عودة إلى ما قبل اتفاقية السلام.

إذا كانت العوامل الداخلية تحت السيطرة وتعالج ضمن الأطر المتفق عليها فلماذا خرجت فجأة عن السيطرة وبدأت تأخذ طريقها إلى التدويل، ولم تنفع معها الحلول والاستجابات التي صدرت عن الرئاسة السودانية بقبول تبديل الوزراء المركزيين أو الاتحاديين من الجنوب والاستمرار في التفاوض حول بقية الأمور إلى حين الوصول إلى اتفاق بين الطرفين حول الحدود والنفط ومنطقة أبيي.

بلا أدنى شك هنالك عوامل خارجية دخلت على الخط وسخّنت الأجواء بين الطرفين بل عقدت الوصول إلى حلول وتعمل من أجل إطالة عمر الأزمة كي تتحول إلى أزمة معقدة وخطيرة لا يمكن حلها إلا بالتدخلات الخارجية مثلما حصل في أزمة دارفور التي بدأت صغيرة حول المراعي بين البدو والحضر وانتقلت إلى مشكلة اثنية كبيرة خلفت وراءها كوارث إنسانية تحتاج إلى جهود عربية ودولية هائلة لتخفيفها، ناهيك عن تضخيمها لتكون قضية دولية بامتياز بعد أن كانت قضية محلية صرف.

ولعل مخاطبة الحركة الشعبية الممثلة للجنوب في الحكم للأمم المتحدة والمنظمات الدولية مباشرة للتدخل في الأزمة بذريعة أن الشريك الآخر «حزب المؤتمر الوطني» لا يلتزم باتفاقية نيفاشا أو قام بتعطيلها تدخل في

إطار التوجه نحو تدويل الأزمة والابتعاد عن الحل الوطني لها وهذا يفسح في المجال لقوى خارجية لمد أصابعها مرة ثانية للتلاعب في وحدة السودان وخلق الفتن بين شماله وجنوبه تمهيداً للتقسيم والانفصال وحرمان هذا البلد العربي الإفريقي المترامي الأطراف من النهوض والأمن والاستقرار والتنمية واستغلال موارده المتنوعة الكبيرة لمصلحة مواطنيه.

لقد أغاظ تلك القوى الخارجية تمكن السودان من الاقتراب نحو الوصول إلى حل لأزمة دارفور رغم التدخلات المكثفة ومحاولات التدويل التي لم تتوقف وهذا يعني تمكن السودان من استغلال موارده من النفط الغزير والثروات الباطنية الثمينة والسير في تحقيق الثورة الخضراء بزراعة المساحات الشاسعة بعد الانتهاء قريباً من بناء عدة سدود عملاقة ودون الارتباط بالمشاريع الأجنبية أو الدخول في بيت الطاعة الأميركي..

لذلك من الصعب على الإدارة الأميركية أن تتصور إفلات السودان من قبضتها وهو البلد الكبير الذي يمثل إفريقيا مصغرة بأبعاده الثلاثة العربية والإسلامية والإفريقية، وبإمكاناته وثرواته الضخمة التي لم تستثمر بعد وتضاهي أي بلد آخر في العالم أقلها أنه يشكل سلة الغذاء للمنطقة بأسرها، وبخاصة بعد أن أضحت العلاقات السودانية - الصينية والعلاقات السودانية - الإيرانية في أحسن أحوالها وعلى مختلف الصعد.

كما يصعب على إسرائيل أن ترى أحلامها في إرواء صحراء النقب واستقدام المزيد من اليهود لا تتحقق عبر المطالبة بحصة من مياه النيل وإقامة دولة في جنوب السودان تضمن لها هذه الحصة دون اعتراض أية دولة في حوض النيل. لهذا كله لا يمكن أن يكون السودان خارج مشاريع التقسيم التي ترسمها إدارة بوش للعراق والمنطقة، ولا يمكن أن يكون النيل

وهو حلم إسرائيل الأكبر خارج اهتمامات الإدارة الأميركية التي وقف رئيسها بوش ليهدد بحرب عالمية ثالثة لمجرد وجود خطر إيراني نووي محتمل عليها وليس على الأمن القومي الأميركي.

من فضلكم لا تنسوا أن تضعوا تحت كلمة النيل أكثر من خط في الأزمة المفاجئة الحادة الناشبة الآن بين شمال السودان وجنوبه، وقد تكون مصر تحسست الخطر فوراً ولكن هذا لا يكفي لأن تداعيات ما يجري يشكل خطراً جدياً على الأمن القومي العربي بكامله، فهل يتحرك العرب قبل فوات الأوان..؟؟

❖ ❖ ❖

عجائب النيـــل

قبـل أيـام تـوفي في الخرطـوم الـشاعر الـسوداني المعـروف الهـادي آدم صـاحب أغنية أم كلثوم الشهيرة «أغداً ألقـاك» وصـاحب دواويـن ومـسرحيات عديدة منها ديوانه الأول «كوخ الأشواق» وديوانه الثاني الذي أثار ضجة كبرى «نوافذ العدم» وديوانه الثالث «عفواً أيها المستحيل»، وضـمت أشـعاره قـصائد بعنـوان «دمـشق» و«عجبـت للبنـان» و«حريـة إفريقيـا» و«مـسرح الأيـام» و«بعـد النكسة» و«عروة البطانة» وغيرها.

أحـدثت وفـاة الـشاعر الكبيـر موجـة عارمـة مـن الحـزن في الأوسـاط الـسودانية وبكتـه مدينـة خرطـوم - بحـري بكـاءً حـاراً لأنـه مـن أبـرز رموزهـا الـذين صـاغوا وجـدان الـشعب الـسوداني مـن خـلال إنتاجـه الـشعري المميـز وتألقه المستمر في المنتديات الشعرية الكبـرى كمربـد العـراق إلـى جانـب كبـار الـشعراء الـسودانيين كالـدكتور /الحبـر يوسـف نـور الـدائم /والـشاعر /مصطفى سند/ والشاعر/ أبوقرون عبد الله أبوقرون/ وغيرهم.

ولأغنية «أغداً ألقاك» قصة مع الشاعر الهادي آدم ومع أم كلثوم، فقـد زارت أم كلثوم الخرطوم في مطلع الـسبعينيات مـن القـرن الماضـي بعـد تـردد طويل عندما جاءهـا أكثـر مـن شـخص وأخافوهـا مـن التماسـيح علـى ضـفاف النيل وبعض الحيوانات المتوحشة بـالقرب مـن المدينـة ومـن طرقاتهـا الترابيـة وطقسها الحار الصعب وظروف الحياة القاسية فيها.

ولكنها قررت أخيراً المغامرة وزارت الخرطوم ومكثت أياماً وعادت إلى القاهرة وهي في غاية الانشراح والسرور من حفاوة الاستقبال وطيبة الشعب السوداني، ونكاية بمن أخافوها وأعطوها معلومات مغلوطة وجعلوها تتردد وتؤجل الزيارة أكثر من مرّة أقامت حفلة استقبال ضخمة أعلنت فيها أن أغنيتها الأولى بعد الزيارة ستكون لشاعر سوداني هو الهادي آدم الذي التقته في الخرطوم، وفعلاً أخذت من ديوانه قصيدة «الغد» فغنتها بعد أن لحنها الموسيقار محمد عبد الوهاب واشتهرت باسم «أغداً ألقاك».

ويروي الشاعر الهادي آدم أنه حضر الاحتفال الذي شدت فيه أم كلثوم الأغنية للمرّة الأولى عام ١٩٧١ حيث استغرقت فيها ساعة ونصف الساعة من الأداء المعجز بسبب الاستجابة لاستعادة الجمهور مقاطع من الأغنية مرّة تلو الأخرى.

وبعد هذا الوقت المضني ذهبت أم كلثوم إلى استراحة قصيرة في المسرح فتبعها الشاعر فوجدها قد أسلمت قدميها للمدلكة لأجل أن تعمل لها مساجاً من جراء إجهاد الأداء، وما إن رأت الشاعر حتى ابتسمت في وجهه، وهي تقول «عاجبك كدا» وكان ذلك تعبيراً عن استحسانها قصيدته التي أطربت الجمهور وأسكرته.. وبات شاعرنا يعرف بشاعر «أغداً ألقاك» في حله وترحاله ولا ندري من زاد بشهرة الشاعر القصيدة أم صاحبة الصوت المعجزة أم كلثوم وكلاهما ترعرع على ضفاف النيل وتأثر بسحر هذا النهر مفجر الإبداع منذ بدء الخليقة.

وحتى لا نبقى في حديث الموت والأموات، ننقل القارئ الكريم إلى لوحة يبدعها النيل مفعمة بالحياة والنماء والازدهار توشك على الولادة في شمال السودان، إنه سد مروي على النيل شمال الخرطوم بحوالي ٣٥٠ كيلومتراً وبعيد عن الحدود المصرية السودانية بحوالي ٤٠٠ كيلومتر ويسمونه السد العالي الجديد الذي تتجاوز تكلفته الملياري دولار بتمويل من

الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي وبتنفيذ من شركات صينية، وبإشراف من وحدة تنفيذ السدود السودانية التي نظمت للسفراء العرب زيارة لموقع السد وكنت واحداً منهم حيث أطلعنا على هذا المشروع الذي يتوقع له قريباً أن يحدث انقلاباً اقتصادياً واجتماعياً في خارطة السودان عموماً ويحول الصحراء إلى بساط أخضر ويشكل منطلقاً للشروع في تنفيذ المقولة التي طالما سمعناها من أن السودان سيكون سلة الغذاء للوطن العربي بأسره.

وعظمة هذا السد تتجلى ليس في كونه السد الأضخم عربياً وإفريقياً بعد السد العالي وإنما في كونه يفسح في المجال أمام السودان للاستفادة من عشرات الأنهر التي تصب في النيل من منبعه في الجنوب إلى النيل الأزرق في الخرطوم إلى عطبرة على مقربة من الشلال الرابع شمالاً ما يتيح إرواء مليوني فدان من الأراضي الموات بحلول عام ٢٠١٠، وينتج من الطاقة الكهربائية النظيفة بحدود ١٢٥٠ ميغاواط أي ضعف ما ينتجه السودان حالياً وتصل خطوط نقل الطاقة لأكثر من ١٧٧٠كم من شمال السودان إلى جنوبه وتمتد بحيرة السد إلى أكثر من ١٧٦ كيلومتراً أمام أطول سد ركامي في العالم وترتفع البحيرة إلى أكثر من ٣٠٠م فوق سطح البحر وبعرض يصل إلى ٢٠ كيلومتراً الأمر الذي سيؤدي إلى تغيير بيئة المنطقة ومناخها.

وهناك على مقربة من منطقة السد تتوضع أقدم أهرامات في العالم هي أهرامات نوري عمرها ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد في حين أن أهرامات الجيزة في مصر عمرها ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد تمت المحافظة على آثار النوبة وآثار سد مروي بأضخم مجهود أثري على مستوى العالم ما يتيح نشاطاً سياحياً واسعاً خصوصاً بعد بناء مطار دولي في منطقة السد يصل أوروبا بإفريقيا.

بقي أن نقول إن معجزات النيل ليست السدود على أهميتها فقط وإنما هو معجزة بحد ذاته، فهو يقطع أطول مسافة مما لا نجده في نهر

غيره من أنهار المعمورة، وليس في الأرض نهراً يسمى بحراً غيره كما أنه يجري من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار عدا «قسم من نهر العاصي في سورية»، ومن عجائبه أيضاً ابتداء فيضانه وزيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفافها، فلا غرابة أن تكون مصر هبة النيل والسودان الهبة الأخرى وأن يكون سد مروي أعجوبة النيل الجديدة التي تشكل بداية العد التنازلي لنهاية الفقر والبطالة في السودان وانطلاقة التنمية الواسعة والشاملة على أراضيه الشاسعة..

❖ ❖ ❖

وللنيل أعياده

فضّلت أن تكون زاويتي اليوم انطباعية وتلقائية، وأن تكون بعيدة عن السياسة وهمومها ومواجعها هذه المرة، فالأعياد تزاحمت علينا من كل فجّ عميق وتجمعت في الشهر الأخير من هذا العام الذي يوشك على الرحيل.

ومن هذه الأعياد ما هو عام وما هو خاص كعيد البربارة وحبة القمح وما ترمز إليه، وعيد الأضحى ومواسم الحج والمغفرة وعيد الميلاد وشجرته وبابا نويل وأطفاله، ورأس السنة الميلادية وعبور العمر نحو سنة جديدة.

وقلت في نفسي: إن للترويح في هذه الزحمة والتزاحم ربما يكون فرض عين لا فرض كفاية فرأيت أن أمرّ على بعض الطرائف والجوانب الإفريقية التي صادفتني هذا العام.

فمثلاً إحدى الصحف السودانية تحدّثت عن الباذنجان وهو مشهور في بلاد الأناضول والشام ويدخل في أصناف عدة من الأطعمة ولا سيما عندما يصنع منه المكدوس أو فتة المكدوس، فقالت: أغلب الظن أن الباذنجان مجلوب أصلاً من شمال بلاد الهند، وهو صنف رئيسي في وجبات بلاد البحر الأبيض المتوسط، وانتقل إلينا (أي إلى السودان) وأصبح صنفاً شائعاً مطبوخاً أو مصقعاً أو محشواً أو سلطة، ومن الناس شريحة عريضة تبغض الباذنجان بغضاً شديداً، ويسميه الطلبة «البراطيش» وكراهيته قديمة، لأنه قارص أحياناً ولاذع الطعم أحياناً أخرى وقد يسبب الحموضة والحرقة، وقال أعرابي عنه: لونه كلون بطون العقارب، وأذنابه كأذناب

المحاجم، وطعمه كطعم الزقوم، فقيل له: إنه يحشى باللحم والصنوبر، ويغلى بالزيت فقال: «لو حشي بالتقوى، وقلي بالمغفرة وطبخته الحور العين وحملته الملائكة.. ما كان إلا بغيضاً».

يُقال: إن مصر هبة النيل، وفي السودان يُقال: إن السودان هبة النيلين وأرفع الأوسمة التي يقدّمها رئيس جمهورية السودان هو وسام النيلين، وعاصمة السودان الخرطوم تتباهى بأنها ملتقى النيلين، الأزرق والأبيض، فالأول ينبع من بحيرة تانا في أثيوبيا، والثاني من بحيرة فكتوريا وسط إفريقيا، لكن النيل الأزرق شديد الغزارة وشديد الفيضان ويشكل بعد التقائه بالنيل الأبيض في الخرطوم ٨٥٪ من مياه النيل أثناء الفيضان، والنيل أطول أنهار الكرة الأرضية وإجمالي طوله ٦٦٥٠كم وترجع تسمية النيل إلى المصطلح اليوناني (NEILOS) كما يُطلق عليه في اليونان (AIGYPLOS) وهو أحد أصول المصطلح الإنكليزي لاسم مصر (EGYPT). ففي مصر الفرعونية ارتبط هذا الفيضان بطقوس مقدّسة حيث كانوا يقدمون القرابين للنيل من أجمل أبنائهم وبناتهم في وقت الفيضان وفاء للنيل وسجلوا هذه الأعياد والاحتفالات في صورة نحت على جدران معابدهم ومقابرهم والأهرامات لبيان مدى تقديسهم لهذا الفيضان، كما قدّسوا العصا التي كان يُقاس بها فيضان النهر والمسماة ذراع النيل وهي على أشكال ثلاثة: لوح أو عمود أو سلم كل منها يحمل تدريجاً».

وفي مصر الإسلامية اهتم ولاتها بالفيضان وقاموا بتصميم «مقياس النيل» في العاصمة القاهرة للقيام بقياس دقيق للفيضان، ومازال هذا المقياس قائماً لليوم في «جزيرة الروضة» وعلى أساسه كان يتم تحديد الضرائب في كل سنة زراعية، وأضحى موقع القياس مزاراً وتطور الأمر أخيراً إلى إنشاء وحدة للتنبؤ في مصر يتم فيها حساب كميات الأمطار المتساقطة فوق منطقة النيل عن طريق معالجة الصور التي تلتقطها الأقمار

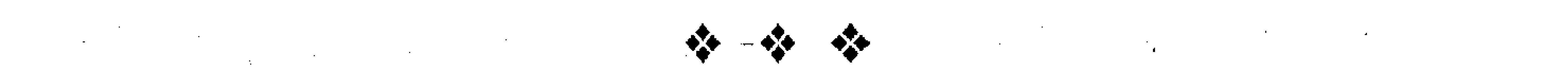
الصناعية لمنطقتي النيل الأزرق والأبيض بهدف تحليل الأنماط المناخية للتغيرات الموسمية للأمطار فوق حوض النيل حتى يتسنى التنبؤ الموسمي لتصرفات نهر النيل.

ولشدّة تأثير النيل في حياة شعوب حوضه الذي يضم عشر دول حالياً نشأت لغة تسمى اللغة النيلية تفرعت إلى لغات منها اللغات النيلية الصحراوية يتحدث بها حوالي ٣٥ مليوناً، وفي السودان لوحدها يتحدث ٧،١٧% من السكان باللغات النيلية التي تعدّ اللغة النوبية جزءاً منها وكذلك لغة الدينكا في الجنوب التي يتحدث بها ١١% من سكان السودان. ولشدّة إعجاب المستشرقين تتبّعوه من منبعه إلى مصبّه برحلات نهرية كتبوا عنها الكثير (فالان مورهيد) كتب في مذكّراته عن النيل الأزرق قبل مئتي عام (.. وشيئاً فشيئاً تتحوّل الجبال في تضامنها التاريخي إلى سهل منبسط، ومع هذا فنحن هاهنا بإزاء حدود حقيقية، وأي إنسان يزور هذا الموضع مرّة يزداد فهمه لتاريخ النهر، فهذا المكان نقطة الاتصال بين عرب الصحراء وأحباش الجبال، وما من أحد يجتاز هذه الحدود بغير عقاب، فالعربي حين يصعد إلى أثيوبيا تنفق جِماله في الجبال وسرعان ما تضعف عزيمته أمام هذا البرد المخيف، والحبشي عندما يهبط إلى الصحراء تنفق بغاله من شدّة الحرارة القائظة وسرعان ما يرتد عائداً إلى الجبل).

وعن الحرارة وأحوالها أحاديث وروايات فالمستكشف الاسكتلندي بروس كتب بعد أن قام برحلة إلى النيل الأزرق عام ١٧٧١م قائلاً: (إني أقول: إن الجو حار عندما يتفصد الإنسان عرقاً وهو مخلد للراحة، أما إذا تحرّك حركة معتدلة فهو يتصبب عرقاً، وأقول: إن الجو شديد الحرارة عندما يعرق الإنسان بغزارة وهو مرتد أخفّ الثياب أو أقلّها، مع أنه مخلد للراحة، وأقول: إن الجو متطرّف الحرارة عندما أرى الإنسان وهو مرتد قميصه ومخلد للراحة يعرق عرقاً غزيراً، وحين تكون أية حركة يأتي بها

مؤلمة ويشعر بتخلخل وتخاذل في ركبتيه كأنه في أعقاب إصابة بالحمى فأقول: إن الجو في «منتهى الحرارة»، وعندما تهبط قدرة الإنسان وينتابه ميل إلى الإغماء ويشتد الضغط على صدغيه وحولهما، كأنّما أحكم برباط حبل حول رأسه ويتخاذل صوته، وتجفّ بشرته ويبدو رأسه أكبر حجماً من المعتاد وأخفّ وزناً، وهذه العلامات نذير في نظري بدنو الأجل». لكن هذا كان قبل الكهرباء والمكيفات مختلفة الأصناف والأشكال.

وفي السودان يطول الصيف وتقصر مدّة البرودة، ولكن هناك مناطق كثيرة تتمتع بطقس بديع وطبيعة خلابة كمنطقة الدندر وجبال النوبة ومناطق الجنوب عموماً وجبل مرّة في إقليم دارفور الذي يشبه طقسه طقس البحر الأبيض المتوسط وقد زرته قبل أسابيع قليلة، فرأيت فيه الروعة الطازجة والبهاء المبكر الذي تفيض به الجبال الخضراء والآمال الأكثر اخضراراً عندما يعمّ الأمن والسلام ربوع الإقليم ويعود الهدوء إلى القلوب التي اكتوت بنار الصراعات ومعظمها مستورد ومعلّب من الخارج، وعلى الرغم من الكوارث والمآسي تتأمل في وجوه الناس وقسماتهم السمراء هناك فلا تجد غير وداعة الإنسان في ذلك الإقليم وطيبته وتأدب أهله في ملمح لا تخطئه العين.. فهل تعوّض الطبيعة بقوتها وجمالها ونضرتها ما أفسده أهل السياسة وأربابها خلف البحار والمحيطات بحروبهم الاستباقية وفتنتهم المتنقلة وأطماعهم التي لا تنتهي.



دارفور كما رأيتها

كنت متشوقاً لزيارة إقليم دارفور الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وعندما سنحت الفرصة أثناء انعقاد المؤتمر العربي لدعم ومعالجة الأوضاع الإنسانية أواخر الشهر الماضي.

حملتني طائرة الخطوط الجوية السودانية مع بقية أعضاء الوفود المشاركة في المؤتمر إلى مدينة الفاشر عاصمة ولاية شمالي دارفور المتاخمة للحدود الغربية للسودان.

ولا عجب في أن تسأل الكثير من السودانيين عن منطقة دارفور فيجيبون أنهم لا يعرفونها إلا من خلال الإعلام، فالإقليم يقع في أقصى غرب السودان ويحتاج بالطائرة إلى أكثر من ساعتين وبالسيارة إلى أكثر من ستة أيام بسبب وعورة الطرق ومشقتها وانقطاع المنطقة في فصل هطول الأمطار المدارية.

قبل أن تحط بنا الطائرة في مطار الفاشر شاهدنا قباب القش الكثيفة تحيط بالمدينة إحاطة السور بالمعصم وهي عبارة عن معسكرات للنازحين والهاربين من لظى المعارك على خطوط النار فافترشوا الرمال واستظلوا بسعف السافانا ملتصقين بعاصمة الولاية لعلها تحميهم من الصراعات والحروب الدامية منذ أكثر من خمس سنوات.

ليس من رأى كمن سمع كما يقول المثل، فقد تجولنا في المدينة والمعسكرات بعد استقبال رسمي وشعبي حافل كان على رأسه والي الإقليم

الرجل المتمكن الفصيح، الذي حدثنا بالتفصيل عن مشكلة دارفور وأسبابها وأبعادها دون أن ينسى الفضيحة الأخيرة التي قامت بها الجمعية الخيرية الفرنسية (زوس آرك) المتمثلة بمحاولة اختطاف /١٠٣/ من أطفال دارفور وترحيلهم إلى فرنسا للمتاجرة بهم، حيث كشفت التحقيقات التي أجرتها السلطات التشادية أن العملية التي تم إفشالها سبقتها ثلاث عمليات نفذت بنجاح.

أقول: ليس من رأى كمن سمع فقد حسبت أن الإقليم كرة من اللهب تتدحرج في كل مكان تأكل الزرع والضرع وتحرق الأخضر واليابس، لكن ما رأيت مع بقية أعضاء الوفود الزائرة ليس كما سمعنا من أجهزة الإعلام الغربية التي ضخمت المشكلة إلى حد الإبادات الجماعية وانتشار الخراب والدمار في كل مكان من أرض الإقليم، فالمدينة هادئة وحركة الأسواق نشطة والمعسكرات التي زرناها وقد أخذت أسماء الاتفاقيات كمعسكر نيفاشا ومعسكر أبوجا مستقرة والمعونات والمساعدات الإنسانية توزع بانتظام والناس تستخرج المياه الجوفية بوساطة مضخات يدوية لقربها من سطح الأرض.. صحيح أن هناك بؤس النزوح وشقاء التهجير على وجوه النازحين الذين يعدون بمئات الآلاف لكن المبالغة الإعلامية الغربية في فظائع غير واقعية هي التي شوهت الصورة الحقيقية ولأسباب سياسية معروفة تبغي البدء بفرض التدخل الأجنبي ومن ثم استلاب ثروات الإقليم الهائلة من نفط ويورانيوم وبوكسيت ونحاس وحديد وانتهاءً بتقسيم السودان على طريقة قرار الكونغرس الأميركي بتقسيم العراق وبعد ذلك غيره من البلدان العربية.

معظم شيوخ السودان يعرفون أن المشكلة في دارفور قديمة تتمثل في وجود فقر مدقع في الإقليم أدى إلى نزوح أبناء دارفور من المزارعين البسطاء إلى منطقة الجزيرة السودانية أو غيرها من المناطق للخلاص من ظروف

الحياة الصعبة في الإقليم وزادت أخيراً تغيرات المناخ العالمي وزحف الصحراء الطين بلة على سكان الإقليم فدخلوا في صراعات دموية مع بعضهم على المراعي والمياه تم استغلالها خارجياً ودفعها باتجاه التدويل وخروجها عن السيطرة المحلية.

وبحسب ما قاله والي الإقليم للوفود الزائرة فإن دارفور كثيراً ما عرفت صراعات بين الرعاة والمزارعين تغذيها الانتماءات القبلية لكل طرف، فالتركيبة القبلية والنزاع على الموارد الطبيعية الشحيحة كانت وراء أغلب النزاعات وغالبا ما يتم احتواؤها وتسويتها من خلال النظم والأعراف القبلية، ولكن منذ عام ٢٠٠٠ تفاقمت المشكلة وبدأت الأصابع الأجنبية تلعب بهذا الإقليم الذي يشكل خمس مساحة السودان وعدد سكانه ٦ ملايين نسمة ويعدّ امتداداً عربياً وإسلامياً داخل إفريقيا كما كان مملكة إسلامية مستقلة تعاقب على حكمها عدد من السلاطين آخرهم السلطان علي دينار الذي يذكر التاريخ أنه كان يكسو الكعبة المشرفة سنوياً ويوفر الغذاء لأعداد كبيرة من الحجاج فيما يعرف عند سكان الإقليم بقدح السلطان علي دينار أو أبيار علي.

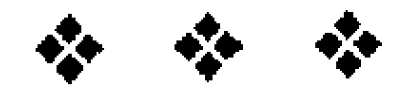
حدثنا أحد الدارفوريين أن أغلبية القبائل المستقرة من الأفارقة ويتكلمون لغات محلية إضافة إلى العربية وبعضهم من أصول عربية أما أغلبية القبائل الرحل فمنهم عرب ومنهم أيضاً من الأفارقة وتحدانا هذا المتحدث أن نتمكن من التمييز بين عربي وإفريقي في هذه المدينة والمعسكرات التي تضم سكاناً من معظم قبائل الإقليم العربية والإفريقية فالاختلاط وصل إلى حد الانصهار والتمازج التام في العادات والتقاليد وبخاصة أن جميع سكان الإقليم من المسلمين.

وعندما سألنا أين الجنجاويد ضحك مرافقنا وقال هي حالة موجودة أريد منها أن تكون أسطورة وفتنة في الوقت نفسه، فعدة زمر من اللصوص

وقاطعي الطريق استغلت ظروف الإقليم وقامت بالنهب والسلب والترويع وسوقها الإعلام الغربي على أنهم من العرب تدعمهم الحكومة للقضاء على الأفارقة واحتلال مزارعهم والحقيقة أن عصابات الجنجاويد تتكون من العرب والأفارقة وأن الكلمة مكونة من ثلاثة مقاطع هي جن بمعنى رجل، و«جاو» أو «جي» ويقصد بها أن هذا الرجل يحمل مدفعاً رشاشاً من نوع «جيم ٣» المنتشر في دارفور بكثرة و«ويد» ومعناها الجواد ومعنى الكلمة بالتالي هو: الرجل الذي يركب جواداً أو جملاً ويلبس اللباس الأبيض والعمامة السودانية إمعاناً في التزييف كما يحمل رشاشاً وهؤلاء ليسوا فقط من القبائل العربية وإنما من مختلف القبائل التي تعيش في الإقليم وهم يهاجمون المتمردين كما يهاجمون قوات الحكومة وهدفهم السلب والنهب أكثر من أي شيء آخر.

وفي حديث والي دارفور شؤون وشجون وحسرة ومرارة فقد قال كم وعدونا بالمساعدات وكم عقدت مؤتمرات للمانحين الدوليين ولكن لم نر شيئاً حتى الآن وقال إن أكثر من ستمئة وفد غربي زار الفاشر وتجول بالإقليم ولكنه كان يذهب ولا يقول إلا عكس الحقيقة انسياقاً مع ماكينة الإعلام الأميركية والغربية وإرضاء للسياسات المرسومة سلفاً ضد السودان فقد ضخموا وهوّلوا بالقول إن الحكومة تسعى لقتل الأفارقة من قبيلة الزغاوة وغيرها حتى تقرير مجموعة الأزمات الدولية (ICG) افتتح بعبارة أن السودان قد تحول إلى قصة رعب حقيقية وأن الحرب التي شنت في الإقليم (ويقصد هجوم الحكومة السودانية) قد خلق واحدة من أسوأ أزمات العالم الإنساني، وأضاف أنهم لا يريدون حل المشكلة بل استمرارها وتأزيمها بين الحين والآخر لأنها أضحت واحدة من أجندات الأحزاب في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا.

أقلعت بنا الطائرة مع غروب الشمس من مدينة الفاشر إلى الخرطوم ونحن نتذكر قصة /١٠٣/ من أطفال دارفور بأعمار سنة إلى خمس سنوات حاولت جمعية فرنسية يقال أنها خيرية اختطافهم من أحضان أمهاتهم البائسات للمتاجرة بهم في ربوع فرنسا وأوروبا.. تذكرنا قسمات وجوههم السمراء وطفولتهم الغضة البريئة التي لا قيمة لها عند المتاجرين بالبشر ودماء الشعوب وشعارات الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وقلنا كم من الجرائم يرتكبها هؤلاء باسم حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية.



حكاية اسمها آبيي

عندما تم التوقيع على اتفاقية نيفاشا في كينيا عام ٢٠٠٥ بين الشمال والجنوب والتي عرفت باتفاقية السلام الشامل في السودان ظلت منطقة أبيي خارج نطاق هذه الاتفاقية نظراً لتعقيداتها على الأرض باعتبارها تشكل جسراً بين الشمال والجنوب وتربط شعب السودان.

وتشتمل على خليط من مشيخات الدنيكا نقوق وقبائل المسيرية وجماعات رعوية أخرى، إضافة إلى وجود معظم آبار النفط المكتشفة في السودان في هذه المنطقة.

وكان النزاع الأساسي بين حكومة السودان والحركة الشعبية في هذا الإقليم حول ترسيم الحدود وتقاسم الثروة النفطية ما استدعى مفاوضات بين الطرفين قبل التوقيع على اتفاقية نيفاشا تم الاتفاق في نهايتها بتاريخ ٢٠٠٤/٥/٢٦ على بروتوكول يؤكد على عدم انتهاك حدود ١٩٥٦/١/١ بين الشمال والجنوب، ويوزع صافي عائدات بترول ابيي في الفترة الانتقالية على ست حصص تحصل فيها الحكومة القومية على ٥٠٪ وحكومة جنوب السودان على ٤٢٪ ومنطقة بحر الغزال على ٢٪ وغرب كردفان على ٢٪ والجهات المحلية في دنيكا نقوق على ٢٪ والجهات المحلية في المسيرية على ٢٪، وضماناً لتنفيذ هذا الاتفاق يتم تشكيل لجنة دولية لترسيم الحدود ونشر مراقبين دوليين في المنطقة خلال الفترة الانتقالية على الشاكلة ذاتها التي سيتم الاتفاق بها في وقف إطلاق النار الشامل، كما يتم تشكيل لجنة

استفتاء ابيي لتشرف على الاستفتاء في المنطقة بالتزامن مع الاستفتاء الذي سيجري في جنوب السودان وتحدد الرئاسة تشكيل هذه اللجنة ويجري المقيمون في ابيي اقتراعاً منفصلاً بغض النظر عن نتائج استفتاء جنوب السودان حول الوحدة أو الانفصال بعد انتهاء سريان اتفاقية نيفاشا المحددة بست سنوات أي في عام ٢٠١١

ماذا حصل بعد ذلك؟ عملت الولايات المتحدة ودول غربية أخرى على ممارسة الضغوط على لجنة ترسيم الحدود فصدر تقريرها منحازاً كلياً ومخالفاً للبروتوكول الموقّع بين الطرفين في عملية تهدف إلى الضغط على الحكومة المركزية ومنعها من استخراج النفط من تلك المنطقة، وعندما لم تقبل الخرطوم بهذا التقرير بدأ تحريض قبائل الدنيكا على قبائل المسيرية وامتدت المعارك بين الطرفين لتشمل حرباً جديدة بين الجيش السوداني الموجود في المنطقة وبين مقاتلي الجيش الشعبي لتحرير السودان، حركة التمرد السابقة في جنوب السودان، وتطورت المعارك في الآونة الأخيرة إلى استخدام الأسلحة الثقيلة وسقوط عشرات القتلى ومئات الجرحى من الطرفين ونزوح أكثر من خمسين ألفاً من سكان الإقليم، وفي آخر تقرير لها عن السودان أكدت مجموعة الأزمات الدولية وجوب حصول تدخل دولي للمساعدة على حل مسألة أبيي التي تهدد، بحسب قولها، اتفاقية السلام.

وبهذا النزاع الجديد الذي بدأت الأصابع الأجنبية بتحويله إلى صراع عربي - إفريقي كما هو الحال في إقليم دارفور تكون الإدارة الأمريكية قد لعبت لعبتها في إشعال كرة نار جديدة وجعل السودان ساحة مفتوحة للصراعات تعود به إلى سنوات الحرب بين الشمال والجنوب التي استمرت ما يزيد على ٢١ عاماً وذهب ضحيتها أكثر من ١,٥ مليون نسمة.

لقد جاء اشتداد المعارك في إقليم أبيي بعد المحاولة الفاشلة التي قامت بها حركة العدل والمساواة في الهجوم المسلح على مدينة أم درمان،

وبعد أن استطاعت القوى الأمنية والجيش السوداني حسم هذا الهجوم التخريبي في وقت سريع فاجأ الجهات الأجنبية التي خططت له طويلاً وقدمت كل ما يمكن من أسلحة حديثة وإمكانات مادية لإنجاحه.

ويبدو أن موقف حكومة الجنوب من أحداث أم درمان قد أزعج القوى المعادية للسودان، حيث كان هذا الموقف متلاحماً مع الحكومة المركزية، وأظهر تضامناً معها في سياق التفاهم والاتفاق على وحدة السودان وتطبيق اتفاقية نيفاشا، ولذلك قاموا مرة ثانية بصب الزيت على النار في منطقة أبيي الغنية بالنفط أملاً في أن يفسح هذا في المجال لتدخل الولايات المتحدة والدول الغربية في قضايا السودان وتحويل هذه المنطقة إلى برميل بارود يهدد بالانفجار ويدمر كل ما تم إنجازه بين الشمال والجنوب. وهذا الاستنتاج جاء على لسان المبعوث الأميركي الخاص للسودان ريتشارد وليامسون ما يدل على نيات إدارة بوش في السعي للاستمرار في خطة الفوضى المدمرة في الدول العربية، إضافة إلى أن هذه الإدارة تضع في سلم اهتماماتها الانتقام من الحكومة السودانية التي رفضت مخططاتها ومشاريعها العربية والإفريقية ووقفت ضد التطبيع مع إسرائيل أو إقامة أي نوع من العلاقات معها.

وبالرغم من أن الرئيس البشير قد طرح صيغة عملية وميدانية لحل أزمة إقليم أبيي ومدينة أبيي بالذات القريبة من حقول النفط التي تنتج نصف إنتاج السودان اليومي من النفط وهي قيام إدارة مشتركة للمنطقة فإن الهدوء لم يعد إلى الإقليم والمخاوف لا تزال مستمرة من نشوب مزيد من القتال بين الطرفين، الأمر الذي يعني أن القوى الأجنبية المتربصة بالسودان شراً والتي تغذي أزمة أبيي مصرة على إبقاء هذه الأزمة مشتعلة في وجه السودان لمنع الوصول إلى تطبيق اتفاقية السلام والتهديد بانفصال الجنوب عن الشمال في نهاية المطاف.

إفريقيا ولغة الضاد

تتكلم الشعوب الإفريقية مئات اللغات وتتحدث بلهجات لا تحصى واللغة السائدة في تعامل الحكومات الإفريقية أو في دوائرها الرسمية هي لغات العهود الاستعمارية والغالب فيها اللغة الإنكليزية واللغة الفرنسية مع قليل من الإسبانية والإيطالية والبرتغالية.

وهذا جعل الاتحاد الإفريقي أمام مشكلة كبيرة بعد أن رأى في القمة الإفريقية التاسعة في العاصمة الغانية أكرا عام ٢٠٠٧ أن يسير على طريق إنشاء حكومة للاتحاد الإفريقي تسمى حكومة الولايات المتحدة الإفريقية، وكرر ذلك في قمة أديس أبابا العاشرة عام ٢٠٠٨، ويطمح رئيس مفوضية الاتحاد الإفريقي إلى أن تتكلم الولايات المتحدة الإفريقية لغة واحدة مع الأخذ بعين الاعتبار أن اللغة السواحلية هي أكثر اللغات المرشحة لأن تكون لغة إفريقيا الواحدة عام ٢٠٥٠ كما قال ألفا عمر كوناري أمام القمة العاشرة، دون أن ينسى مناشدة الأفارقة أن يتعلموا اللغة العربية لأنها لغة أكثر من ٢٥٠ مليون في البلاد العربية منهم ما يزيد عن الثلثين يعيشون في البلاد العربية الإفريقية... ومناشدة هذا الرجل مهمة أمام رؤساء ٥٣ دولة إفريقية في قمة أديس أبابا وأكثر من ١٠٠ دولة ومنظمة دولية وإقليمية تحضر هذه القمة بصفة مراقب، وأكد أن هذه المناشدة قد كررها منذ عامين ويبدو أن جامعة الدول العربية لم تلتقط هذه الإشارة الصريحة الواضحة التي أطلقها كوناري باندفاع ورغبة حماسية.

ومشكور هذا الرجل لأنه لم يملّ من الطرح فقد أعاد إلى الأذهان في خطابه أمام الجلسة الافتتاحية لقمّة أديس أبابا التذكير بأهمية تعلم الأفارقة اللّغة العربية رغم أنه سيغادر منصبه في رئاسة مفوضية الاتحاد قريباً ويتسلم رئاسة المفوضية بدلاً منه وزير خارجية الغابون الذي انتخبته قمة أديس أبابا.. وكوناري على يقين أن اللغة العربية مقبولة لدى جميع الأفارقة سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم لأنها ذات جذور عميقة في إفريقيا ولا ينظر إليها على أنها لغة العهود الاستعمارية، بل كانت في بداية الخمسينيات لغة التحرر والسيادة والاستقلال عندما كان جمال عبد الناصر يتصدر قيادة حركات التحرر في إفريقيا إلى جانب القادة الأفارقة الكبار أمثال كواني نكروما وباتريس لومومبا ولوثر كينغ وفرانس فانون ونلسن مانديلا وغيرهم، وكانت أمنية كل إفريقي أن يتعلم اللغة العربية حتى قيل: إنّ من لا يتكلّم العربية في إفريقيا يشعر بالغربة والعزلة عن مسيرة التيارات الصاعدة في القارة السمراء.

ما أبعد اليوم عن الأمس لأن مياهاً كثيرة جرت تحت الجسر وابتعدت معظم الدول الإفريقية عن العرب وقضيتهم المركزية فلسطين بعد اتفاقات كامب ديفيد، واحتار الأفارقة كيف يكونون عرباً أكثر من العرب وكيف يمكن أن يستمروا على التزامهم بقضية تخلى عنها القسم الأكبر من أصحابها، وأدى هذا التحول إلى ضعف الاهتمام بأن تكون اللغة العربية هي اللغة الغالبة في عموم إفريقيا مع أن هذا لم يكن صعباً في ظل أجواء التحرر الإفريقية التي كانت تتزعمها مصر في الخمسينيات من القرن الماضي، واليوم يخرج الصوت عالياً من أحد أبرز زعماء إفريقيا ألفا عمر كوناري رئيس جمهورية مالي سابقاً ورئيس مفوضية الاتحاد الإفريقي لسنوات طويلة كي يذكّر العرب قبل الأفارقة بأن الفرصة مازالت متاحة أمامهم لتحقيق هذا الطموح، ولا يتعارض ذلك مع ترشيحه اللغة السواحلية أن تكون

لغة إفريقيا في المستقبل لأن اللغة السواحلية هي خليط من اللغة العربية وبعض اللغات الإفريقية في شرق إفريقيا كاللغات النيلية والنوبية والدينكا بل إن أكثر من ٤٠ بالمئة من مفردات اللغة السواحلية هي من اللغة العربية التي استوطنت واستقرت في إفريقيا الشرقية على سواحل المحيط الهندي عندما وصل التجّار العرب إلى تلك المناطق منذ مئات السنين قادمين من اليمن وعمان وسواحل الخليج العربي وبنوا سلطنة هي سلطنة زنجبار بالقرب من شواطئ تنزانيا (تنجانيقا) سابقاً دامت أكثر من سبعين عاماً توالى عليها السلاطين العرب من الخليج وبخاصة من عمان.

ولا يوجد في إفريقيا كلها كتلة بشرية تتكلم لغة واحدة وتعدّ بعشرات الملايين سوى الكتلة التي تتكلم اللغة السواحلية وهي لغة أكثر من أربعين مليون نسمة منتشرين فيما يزيد عن عشر دول إفريقية، ومن هنا جاء نداء ألفا عمر كوناري بأن تكون اللغة السواحلية هي لغة الولايات الإفريقية المتحدة إذا أخذت هذه الفكرة طريقها إلى التنفيذ، وقد قال الرجل: أنه لا يتكلم السواحلية وليس من مناطقها ولكن واقعياً لا توجد إلا هذه اللغة مرشحة لأن تحتل مركز الصدارة في طموح الاتحاد الإفريقي بلغة واحدة تكون لغة الإعلام الإلكتروني والثورة الرقمية، وسواء تحققت فكرة الولايات المتحدة الإفريقية أم لم تتحقق فإن موضوع نشر اللغة العربية في إفريقيا مسؤولية هامة للغاية على الدول العربية القادرة أن تضطلع بها.

وكم كنت أتمنى أن يستجيب عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية لنداء رئيس المفوضية بشأن اللغة العربية بعد أن أخذ الكلام بعده مباشرة أمام القمة الإفريقية في أديس أبابا فيحمل هذا النداء لطرحه في القمم العربية وفي القمة العربية الإفريقية المشتركة التي اقترحها عام ٢٠٠٩ عسى أن تبادر الدول العربية لتقديم كل ما يمكن لإنجاح هذا المسعى وتوفير المستلزمات البشرية والمادية من فتح جامعات ومعاهد ومدارس لتعليم لغة

العرب في الدول الإفريقية، والدول العربية قادرة على أن تحوّل هذا الحلم إلى حقيقة فتعيد ربط الجسور بين إفريقيا والعرب ويصبّ هذا في الوقت نفسه في خدمة أن تكون اللغة السواحلية لغة إفريقيا نظراً لتقارب اللغتين وطبيعة نشوء اللغة السواحلية منذ البداية، ومع مزيد الأسف فإن ما بدأته بعض الدول العربية بنشر اللغة العربية من خلال بناء المدارس والكليات والمعاهد والجامعات قد تراجع إلى حدّ الصفر كما حدث في نيروبي وغيرها من العواصم الإفريقية، فهل يكون لنداء الاتحاد الإفريقي الجديد في القمة العاشرة صدى لدى الدول العربية أم أنه سيذهب أدراج الرياح وتكون لغة الضاد مظلومة أشد الظلم من الناطقين بها وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً..!!



❖ ❖ ❖

نيروبي ترطن بالعربية

أنت في نيروبي، إذن أنت في العاصمة التي انبثقت من قلب الغابة الأكبر والأرحب في كينيا، ولحظة وصولك إلى مطار جومو كينياتا تحسّ بالدفء الإفريقي ذي النكهة الربيعية، فالعاصمة ذات ربيع دائم حيث لا تتجاوز الحرارة فيها طوال أيام السنة ٢٥ - ٢٨ درجة وتعيش فصلين ممطرين لأكثر من خمسة شهور تتعدى فيها نسبة الأمطار ٦٠٠مم في السنة، وتتقلك نيروبي إلى حين كانت إفريقيا في الزمان الماضي لم يدخلها غريب في الوقت ذاته تكسوها حلة من الحداثة في شوارعها وأبنيتها الشاهقة.

أنت في نيروبي، إذن أنت على تماس مع خط الاستواء الذي لا يبتعد عن المدينة أكثر من أربعين كيلومتراً، ومع ذلك تتدنى الحرارة فيها إلى ٥ درجات فوق الصفر ليلاً في الأيام الممطرة ويعود ذلك إلى أن نيروبي تقع على ارتفاع ألفي متر عن سطح البحر وتجاور جبال ريف فالي التي ترتفع أكثر من أربعة آلاف متر، بينما لا يبتعد عنها جبل ماوت كينيا أكثر من مئة كيلومتر الذي تغطي قممه الشاهقة الثلوج طيلة أيام السنة وهو من أعلى جبال القارة الإفريقية بعد جبال كليمنجارو المشهورة في تنزانيا، ويصل ارتفاع جبل كينيا إلى ما يزيد عن خمسة آلاف وستمئة متر وقد سميت البلاد باسم هذا الجبل وتعني باللغة المحلية الجبال الساطعة وقد كانت بريطانيا تفتخر بأن هذا كان من المعالم الرئيسية لمستعمراتها.

أنت في نيروبي، إذن أنت في البلاد التي تشغل مساحة ٦٥٠،٥٨٢

كيلومتراً مربعاً من القرن الإفريقي وهذه المساحة التي تزيد على مساحة فرنسا لا يسكنها سوى ثلاثين مليون نسمة استطاعوا الحصول على استقلالهم في ١٩٦٣/٦/١ بعد نضال مرير ضد الاستعمار البريطاني قاده زعيمهم المشهور جو موكينيا وهو أول رئيس لكينيا ويلقبونه أبا الشعوب وتبع خطاه من بعده دانييل آرب ساموي وديدان كيماتي قائد الماو الماو الذي قاد الآلاف من أجل استقلال كينيا.

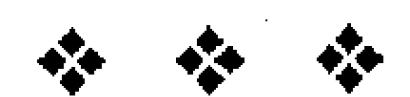
ومن مفاخر الكينيين أن أول امرأة إفريقية هي البروفيسور «وانقاري ماتاهي» تنال جائزة نوبل للسلام كما أنها أول امرأة في وسط وشرق إفريقيا تنال درجة الدكتوراه وأول امرأة تعتلي منصب رئيس جامعة كينيا. كما أن الكيني إبراهيم حسين هو أول إفريقي حاز على جائزة الماراثون في بوسطن ونيويورك عام ١٩٨٨، والكينية «تيغلا لوروب» حازت على سباق الماراثون للنساء وكانت أول امرأة إفريقية تحصل على ذلك بينما حاز العداء الكيني «باول تارقات» على جائزة الماراثون أيضاً لخمس مرات وهو من العدائين المذهلين في قطع مسافات طويلة في عشر السنوات الأخيرة وأصبح سفيراً ضد الجوع لبرنامج الأغذية العالمي.

وفي نيروبي تطرق مسامعك كلمات كثيرة بالعربية وربما تكون المفردات العربية أكثر بكثير في المدينة الثانية الكينية ممبسا وكذلك على طول الشريط الساحلي حيث تنتشر اللغة السواحلية وهي اللغة الأكثر تأثراً باللغة العربية، واللغة السواحلية هي اللغة الأكثر استخداماً مع الإنكليزية في معظم بلدان شرق إفريقيا وهي تحتوي على ما يقارب ٤٠ بالمئة من مفرداتها بالعربية.

واللغة السواحلية هي بالأساس اللغة البانتوية التي تأثرت باللغة العربية بعد انتشار التجار العرب من عُمان واليمن في القسم الجنوبي من القرن الإفريقي على شواطئ المحيط الهادي وبشكل خاص خلال القرن

السابع الميلادي فقاموا ببناء مدن ساحلية مهمة مثل ممبسا وزنجبار وكلوا ومالندي، ونتيجة توسع النفوذ العماني سياسياً وتجارياً وثقافياً في هذه المنطقة نقلوا عاصمتهم من مسقط إلى زنجبار عام ١٨٢٢ وبذلك انتشر الإسلام وغطت المؤثرات العربية شتى مناحي الحياة في اللغة والثقافة والعادات والتقاليد والمأكل والملبس، إلى أن حرّض الاستعمار الغربي السكان المحليين على العرب والمسلمين في معظم البلدان الإفريقية مطلع القرن العشرين ليبسطوا سيطرتهم عليها، وحاولوا تأجيج نار الكراهية وسط الأفارقة ضد كل ما هو عربي ومسلم فاندلعت ثورة زنجبار عام ١٩٦٤ لتنهي الوجود العربي سياسياً في شرق إفريقيا في صورة تقارب إلى حد كبير نهاية هذا الوجود في الأندلس.

وبغياب الوجود السياسي للعرب والمسلمين في هذه البلدان لم تستطع عوادي الزمن أن تغيّب المفردات العربية عن لسان جميع سكان شرق إفريقيا فلازالت نيروبي وممبسا ودار السلام وزنجبار ومالندي وغيرها الكثير من العواصم والمدن الإفريقية ترطن بالعربية رغم عدم اهتمام الدول العربية بإنعاش اللغة العربية في الجامعات الإفريقية فقسم اللغة العربية بجامعة نيروبي يعاني الضعف والإهمال والأمر ذاته في جامعة دار السلام والعواصم الأخرى الإفريقية.. فمتى يغار العرب على لغتهم..؟ دعوى راودتني وأنا أغادر مطار جومو كينيتا متجهاً شمالاً إلى الخرطوم التي تحتضن المعهد العربي للغة العربية التابع لجامعة الدول العربية فلماذا لا يكون أمثاله في دول إفريقيه كبرى تتعطش للغة الضاد ؟؟؟



أسمرا وأحوالها

كنت أظن قبل وصولي إلى أسمرا أن اسم هذه المدينة الرابضة على أعلى قمة جبلية في إريتريا مأخوذ من السمرة أو اللون الأسمر لأديم الأرض ووجوه السكان.

ولكن وصلني الجواب الصحيح من أحد الإريتيريين المعمرين الذي قال: إن كلمة أسمرا باللغة التيغرينيّة السائدة تعني الوحدة أو التوحيد، فالمدينة قبل أن يتخذها الإيطاليون مركزاً رئيسياً لقواتهم وعسكرهم في إفريقيا كانت ثلاث قرى متجاورة فاتفق مخاتيرها في لحظة تفاهم وانسجام على توحيدها بقرية كبيرة وأطلقوا عليها اسم أسمرا أي البلدة الموحدة.

وحكاية الأسماء والمسميات حكاية ممتعة ترتبط بالمكان والزمان والأحداث التاريخية وأشياء أخرى كثيرة ما دعاني إلى الوقوف عند تسمية إريتريا فوجدت أن هذه التسمية ترجع إلى الرومان الذين أطلقوا تسمية «سينوس اريتريوس» على البحر الأحمر وشواطئه عندما خضعت «عدوليس» على الشاطئ الإريتيري لسلطانهم، وحين احتل الإيطاليون هذه الشواطئ نهاية القرن التاسع عشر أطلقوا اسم «إريتريا» عليها إحياء للتسمية الرومانية وذلك بمرسوم أصدره الملك الإيطالي «همبرت الأول» عام ١٨٩٠م.

حتى العملة استغربنا اسمها وهي «ناكفا» وعندما سألنا ماذا تعني هذه التسمية قالوا: إنها اسم أول بلدة تم تحريرها لذلك لها مكانة خاصة فاستحقت أن تسمى العملة باسمها وهي لا تبعد كثيراً عن العاصمة أسمرا.

نعود للحديث عن أسمرا العاصمة الإريتيرية التي تفاجئك بطرازها المعماري الفريد فقد خطط الإيطاليون المدينة إلى جوار القرية المثلثة على نمط المدن الإيطالية وشيّدوا الأبنية فيها خلال فورة طراز «الأرت ديكور» في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي في أوروبا، لذلك فهي مختلفة تماماً عن الصورة النمطية للمدن الإفريقية.

ولا يتجاوز تعداد السكان في المدينة نصف المليون نسمة، ونظافة شوارعها المستقيمة والمتقاطعة بشكل منتظم بادية للعيان، ومحلاتها التجارية ومطاعمها التي يشغل زبائنها الأرصفة مع غروب الشمس تذكرك بالمدن الأوروبية.

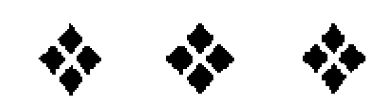
ترتفع المدينة أكثر من ألفي متر عن سطح البحر وتستريح على أعلى القمم الجبلية في إريتريا وكل من يأتيها براً من الجهات الأربع يحتاج إلى الصعود إليها وكأنه يصعد درجات السلم، ولكن وعثاء السفر وآهات المسافرين في المنخفضات الحارة تذهب مع الجو المعتدل والهواء المنعش عند الوصول إلى أسمرا وهو جو مائل للبرودة، فالحرارة لا تتجاوز طيلة أيام السنة ٢٧ درجة مئوية وخضرة الجبال المحيطة بها وشوارعها الأنيقة ومبانيها المميزة تجعل زائرها يشعر بأنه في إحدى مدن شمال إيطاليا وليس في قلب القرن الإفريقي.

تبتعد المدينة عن البحر الأحمر خط نظر حوالي ٩٠ كيلومتراً ولكن الطريق إلى مصوع الميناء الرئيسي لإريتريا على البحر الأحمر يشبه الأفاعي الملتوية ورحلة الهبوط باتجاه البحر تستغرق وقتاً طويلاً.. ولكن مع الهبوط تبدأ الحرارة في الارتفاع وما إن تصل إلى شاطئ البحر الأحمر حتى تشعر بأنك مررت بفصول السنة الأربعة لينتهي بك المطاف إلى حرارة لاهبة تزيد على الأربعين درجة معظم أشهر العام.

تعتبر إريتريا أحدث دول القارة الإفريقية استقلالاً وهذا العام احتفلوا بالذكرى السادسة عشرة للاستقلال ولكن الحروب الداخلية والخارجية داهمتهم بعد الاستقلال واستنزفت طاقات البلاد وذهبت بأكثر من مئة ألف نسمة وأضعاف هذا العدد من الجرحى والمشوهين وطحنت الناس والممتلكات وخلّفت مآسي وويلات تحتاج إلى زمن طويل للخروج منها.

ورغم جراح الحروب ومرارتها والخشية من اندلاعها مرة أخرى تغفو أسمرا على وسادة من الهدوء والأمان الملحوظ وتستنشق الهواء الخالي تماماً من التلوث ويستمتع زائرها بشرب عصير «الباباي» الطازج وتناول القهوة المحلية التي لا تزال تحضر بالطريقة التقليدية، فالإريتيريون من أوائل الشعوب التي عرفت نبتة البن وصنعوا من حبوبها القهوة ومن قشرتها مشروباً محلياً آخر يعرف باسم القشر، واللافت أن البن ما زال يحضر بالطريقة نفسها منذ قرون ويقدم قهوة وقشراً.

تشعر وأنت تودع أسمرا بأنك تودع أناساً مفعمين بالطيبة والوداعة يعيشون حياتهم البسيطة، ترنو عيونهم إلى اللحاق بقافلة العصر السريعة التي لا ترحم ويتطلعون إلى تنمية تنهض ببلدهم وتنقله إلى معارج المستقبل المنشود، ولكن مع تلويحة الوداع يتملكك إحساس بأن تعود مرة ثانية لترى ملامح أخرى وتتعرف على أسماء ومسميات وتضاريس وغابات ووديان لم تمر عليها أي من وسائل الإعلام ولم تلامسها عيون أي من الفضائيات حتى الآن في بلاد تمسك بالجزء الأكبر من البحر الأحمر، من شماله إلى عنق باب المندب جنوباً على شريط يزيد على الألف كيلومتر..



جوبا عروس الجنوب

إذا ذهبت إلى السودان ولم تشاهد جوبا التي تبعد عن الخرطوم حوالي الساعتين والنصف بالطائرة جنوباً فسوف لن ترى عالم إفريقيا على حقيقته فهناك الغابات العذارء والطبيعة البكر والنيل الأبيض وهو يدخل أراضي السودان للتو من منابعه القريبة في بحيرة فكتوريا فيكون على أشده غزارة واتساعاً فتحسبه بحراً وهم يسمونه بحراً وليس نهراً ولعل المدهش في جوبا تلك الخضرة التي لا حدود لها وتلك الغابات المحيطة بها من كل جانب وبين بيوتها المتواضعة وفي هذه المنطقة الاستوائية تعيش أكبر كمية من الحيوانات البرية في العالم.

تعتبر جوبا رئاسة ومركز معظم المصالح الحكومية والمنشآت العامة والشركات التجارية في المديريات الجنوبية، كما أنها اختيرت كرئاسة للقيادة العسكرية في الجنوب، وأصبحت عاصمةالجنوب وحاضرته.

جوبا هي عاصمة المديرية الاستوائية التي تمثل منطقة الحدود الجنوبية للسودان مع الدول الإفريقية المجاورة - يوغندا وكينيا والكونغو - وتشترك مع مديريات أخرى في الحدود مع إثيوبيا وإفريقيا الوسطى، وهذه المديرية الاستوائية تجاور خمساً من الدول الثماني التي تشترك حدودها مع السودان.

وتمتاز المديرية بموقع جغرافي جيد على الضفة الغربية لبحر الجبل، وتمثل النهائية الجنوبية للملاحة النهرية، كما أنها مركز للطرق البرية التي

تربطها مع مديرياتها، ومديريات أعالي النيل وبحر الغزال وهي نقطة التقاء الطريق النهرية بالطرق البرية في الإقليم.

وقد اختيرت جوبا عاصمة للمديرية الاستوائية في عام ١٩٣٠ نظراً لجودة موضعها حيث ترتفع عن الأرض وتتجه في انحدارها نحو بحر الجبل، كما أنها تمثل موضعاً جافاً يصلح لقيام المباني المستديمة التي تتطلبها مقومات المدينة، وهذا الموقع الممتاز يمثل حماية طبيعيه من فيضان بحر الجبل في هذه المنطقة، كما يساعد على تقليل نسبة الرطوبة.

وقد كان العامل الإداري هو الأساس في اختيار موقع مدينة جوبا كعاصمة، ذلك لأن عاصمة الاستوائية كان ينتقل من المراكز المختلفة الواقعة في النطاق القريب من جوبا على بحر الجبل، وكل تلك المواقع استخدمت كعواصم إدارية في الفترات التاريخية.

وفي الحقيقة أن موقع جوبا الممتاز يجعلها تخدم المديريات الجنوبية الثلاث، لذا فإن مدينة جوبا هي مركز للقوات المسلحة الجنوبية، ورئاسة للخدمات الرئيسية التعليمية والصحية وغيرها لمعظم المناطق الجنوبية.

وترجع أهمية جوبا كميناء نهري إلى أن معظم البضائع والسلع تستورد من الشمال وخاصة في المواسم الماطرة، حيث يعتبر النقل النهري وسيلة المواصلات الرخيصة، كما تعتبر ذات أهمية تجارية كبيرة وتعد مركزاً لتوزيع البضائع والسلع إلى جميع أجزاء المديرية الاستوائية، كما أنها مركز لتجميع تجارة المديرية التي يتم ترحيلها إلى العاصمة الخرطوم والمدن الكبرى.

وتخدم جوبا المشاريع الزراعية الموجودة في مديريتها وأهمها مشروع الزاندي الزراعي في جنوب غرب المديرية وهو من أهم المشاريع الزراعية في الجنوب، أما من ناحية المناخ المحلي فإن المدينة تقع تحت تأثير البيئة الاستوائية إذ تنخفض درجات الحرارة وخاصة في الشهور بين مايو وأغسطس.

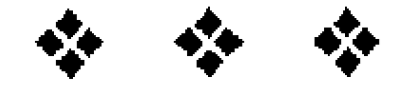
تتميز مدينة جوبا بطبيعة تخطيطها الذي تنفرد به عن المدن الأخرى في الشمال وخاصة من ناحية استخدام الأرض وشكل المباني والشوارع ومواد البناء المستخدمة وتوزيع السكان ومهنهم في المدينة.

وتحيط مدينة جوبا من الشرق والضفة الغربية لبحر الجبل، ومن الشمال الأراضي المرتفعة والمنحدرة، ولكن الأرض تتبسط في الاتجاهين الغربي والجنوبي، وهي المناطق التي تتوسع عليها حالياً، كما أن الجانب الشرقي للمدينة لا يلاصق بحر الجبل مباشرة، ولكنه يترك بينها مساحة خالية تجنباً لأثر الفيضان.

ويلاحظ أن المباني تقع على مناطق تلالية، كما في المنطقة العسكرية غرباً، ومنطقة كتور جنوباً، وبعضهما في مناطق منخفضة كما في الأجزاء الشرقية للمدينة إلى جانب أن الشوارع واسعة ذات تربة اللاتريت.

ومن ناحية طراز المباني في المدينة يلاحظ أن المنازل السكنية ما عدا منازل السكان المحليين، تشيد من الحجارة والطوب الأحمر والأسمنت، ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من المساكن في المدينة، أولها : هي المربعات السكنية القديمة في غرب المدينة وكانت تستعمل كمنازل سكنية للحكام البريطانيين، وثانيها هي منازل الأهالي التي تمثل أكبر مناطق المدينة السكنية، وتشيد المباني من القش وفروع الأشجار.

تغادر جوبا وأنت تحمل في ذاكرتك مدينة لها مستقبل كبير بموقعها وطبيعتها العذراء ونيلها الأبيض الفوار وأرضها الخصبة وحيواناتها المدجنة والبرية التي تضاهي أية منطقة في العالم إنها عروس الجنوب السوداني وآخر مدينة تخلط العربية بلغات أخرى لتنتج ما يعرف بلغة "عربي جوبا" ذات الرنين العربي والمفردات الإنكليزية المساندة.



بحيرة تانا المقدسة

من يذهب إلى منطقة البحيرات الكبرى وسط إفريقيا ومن يقف على ضفاف بحيرة فكتوريا يبقى يرنو إلى استكمال هذه المشاهد الطبيعية الخلابة وذلك بزيارة بحيرة فكتوريا الفريدة من نوعها فهي أكبر بحيرات إثيوبيا وهي منبع النيل الأزرق والتي يضفي عليها سكان إثيوبيا القداسة وقد ألّفوا حولها القصص والأساطير المتداولة جيلاً عن جيل وحقبة عن حقبة.

وإذا أردت القيام برحلة داخل بحيرة تانا وزيارة معالم المدينة فلا بد لك من دليل من الشباب الصغار الذين يتحدثون الإنجليزية بطلاقة كما يتحدثون الإيطالية والأسبانية، وعندما وصلت إلى البحيرة الساحرة التي تخلب الألباب وقفت أتأمل المياه المتدفقة منها وهي متجهة نحو أرض السودان في مشهد مثير ومليء بمشاعر الشوق والحنين التي لا بد أن تصيب كل من يشاهدها. بعدها استقلينا قارباً صغيراً في رحلة سياحية داخل البحيرة استغرقت حوالي الـ ٣ ساعات استمتعنا خلالها بزيارة عدد من الجزر الواقعة داخل البحيرة والتي بها العديد من الآثار التاريخية ويقال أن عددها داخل تانا تتجاوز الـ ٣٥ جزيرة على مساحة ٣٠٠٠ كيلو متر تقريباً وطول البحيرة ٧٦ كم وعرضها ٧١ كم وتقع على ارتفاع ١٨٣٠ متر، وتوقفنا في أحدى الجزر وكانت المفاجئة أن وجدت عدد من السكان فيها وكلهم من الرجال فقط وعندما سألت عن سر ذلك قيل لي أنها جزيرة محرم على

النساء دخولها وذلك حسب معتقدات دينية يؤمنون بها، ودخلت برفقة الدليل وشخص آخر وسط الجزيرة الكثيفة الأشجار والجزيرة بأكملها عبارة عن جبل وطلبت منه محاولة الصعود إلى أعلى وعندما وصلنا إلى قمة الجبل فوجئت بوجود كنيسة كبيرة وبداخلها عدد من العباد وهم يقومون بطقوسهم الدينية وهذه الكنيسة عمرها ٢٠ قرناً كما أوضح لنا أحد المقيمين فيها كما يوجد متحف، ورجل آثار حكى لنا قصة إنشاء هذه الكنيسة التي يطلق عليها (قبرن غبريال) وبعد الانتهاء من زيارة هذه الجزيرة اتجهنا إلى جزيرة أخرى مجاورة وبها كنيسة أثرية أخرى باسم (انتونيوس) إلا أنها أصغر حجماً من الأولى كما يحق للنساء دخولها وعمرها ٢٠ قرناً أيضاً. هذا التاريخ العريق يؤكد ما يقوله البعض بأن الإنسان الذي يعيش حول هذه البحيرة يعتبر من أقدم السلالات البشرية الموجودة في العالم.

الرحلة داخل بحيرة تانا مثيرة ومليئة بالعجائب والغرائب وهناك الكثير من الأسرار التي لم تكتشف بعد، وما لفت نظري هو عدم وجود عرب في تلك المنطقة ووجود أعداد كبيرة جداً من أجانب من أمريكا وأوربا وآسيا ويقومون بتوثيق كل شئ عن البحيرة، كما هي العادة في رحلاتهم وجولاتهم في مناطق العالم المختلفة.

إن بحيرة تانا أسطورة من الأساطير وأعجوبة الطبيعة في إثيوبيا والقارة الإفريقية تتركها وفي نفسك شيء من تانا إنها أم النيل الأزرق أغزر الأنهار في إفريقيا كلها.

❖ ❖ ❖

تسي تسي الذبابة القاتلة

حمدت الله كثيراً لأنه لم يصدر مرسوم باعتمادي سفيراً غير مقيم في جمهورية إفريقيا الوسطى فقد حدثني السفير الكويتي منذر العيسى لدى الخرطوم قبل أن ينتقل إلى ماليزيا كيف سافر إلى بانجي ليقدم أوراق اعتماده سفيراً غير مقيم لبلاده لدى جهورية إفريقيا الوسطى والرعب الذي انتابه عندما حط بمطار العاصمة بانجي وسمع الأعاجيب عن خطورة ذبابة تسي تسي إذ تكفي لسعة واحدة لكي يحضر عزرائيل وينقله إلى الآخرة وموطن هذه الحشره القاتلة الريئسي هو جمهورية إفريقيا الوسطى قال لقد ضربني الوسواس فصرت دائم الالتفات يميناً ويساراً خشية أن تمر الملعونة الذكر فتفعل فعلتها بي وفي الفندق كان خوفي أكبر لانعدام النظافة ولم أعرف طعم النوم تلك الليلة التعيسة حتى لا تغافلني واحده ويكون كل شيء قد انقضى. وأضاف إنني لم أعرف كيف قضيت اليوم الثاني حيث قدمت أوراق اعتمادي لرئيس الجمهورية وعدت أدراجي لا ألوي على شيء ولم أصدق أني ركبت الطائرة وعدت إلى الخرطوم شاكراً حامداً المولى القدير أني سمعت عن هذه الذبابة ولم أراها ولم تراني ولكني بقيت عدة أيام وأنا تحت كابوسها الثقيل. وهنا أدركت كم أنا محظوظ لأني لم أكن في عداد السفراء غير المقيمين هناك وتحسرت على الملايين من البشر الذين يذهبون ضحية حشرة لا تزن أكثر من ثلاثة غرامات. وتساءلت هل يعجز العلم عن تخليص الأفارقة منها ومن البعوض الذي يقتل أكثر من مليون شخص سنوياً بإفريقيا.

إن هناك نحو ١٠ ملايين كيلو متر مربع من القارة الإفريقية موبوءة بذبابة «تسي تسي». وثمة جزء خصب من هذه المساحة الشاسعة تتعذر زراعته ويطلق عليه اسم الصحراء الخضراء التي لا يقربها بشر ولا حيوان. وفي حال استئصال ذبابة «تسي تسي»، ومن ثم القضاء على مرض التريبانوزوما الذي تنقله، فإن ذلك سيتيح للريفيين الأفارقة استرداد بقاع واسعة من قارتهم وتعزيز الإنتاج الغذائي إلى حد بعيد.

وتنقل ذبابة «تسي تسي» اللاسعة طفيلية المثقبية القاتلة التي تهاجم دم ضحاياها وجهازهم العصبي. وتؤدي هذه الطفيلية إلى الإصابة بمرض التريبانوزوما الذي يُعرف شكله البشري باسم مرض النوم وشكله الحيواني باسم «ناغانا».

ويندرج مرض التريبانوزوما في عداد أشد الأمراض فتكاً في البلدان الإفريقية جنوب الصحراء حيث يؤدي إلى قتل ٨٠ في المائة من ضحاياه. وتشير التقديرات إلى أن العدد الإجمالي للمصابين به يصل إلى نحو نصف مليون شخص. ويؤدي هذا المرض إلى نفوق ٣ ملايين رأس من الحيوانات سنوياً كما يسفر عن انخفاض القدرة الإنتاجية للحيوانات المصابة. ويصل عدد الحيوانات التي تعاني من مرض «ناغانا» إلى قرابة ٥٠ مليون حيوان، بينما يهدد مرض النوم زهاء ٦٠ مليون إنسان، جُلّهم في المناطق الريفية ومن بين البلدان السبعة والثلاثين المنكوبة بذبابة «تسي تسي» فإن هناك اثنين وثلاثين منها تنخرط في عداد أشد البلدان فقراً في العالم. وبالإضافة إلى الأعباء الاقتصادية التي تواجهها هذه البلدان فإنها تفقد ما يتراوح بين ٦٠٠ مليون و ١,٢ مليار دولار كل عام في الجهود المبذولة لمكافحة المرض وكخسائر مباشرة في إنتاج اللحوم والألبان.

ويقول السيد يورغي هندركس، خبير المنظمة في ميدان مكافحة الحشرات والآفات، «إن ذبابة «تسي تسي» هي حشرة تنشر الفقر، فهي

تحول دون إفلات السكان من فخ الفقر بمنعهم من إنتاج ما يكفي من غذاء للبقاء على قيد الحياة. «وفي الحقيقة فإن ذبابة «تسي تسي» ومرض التريبانوزوما هما العائقان الرئيسيان أمام استحداث نظم زراعية مستدامة في الإقليم، مما يلحق الضرر بأشد الفقراء حرماناً ألا وهم الريفيون في البلدان المثقلة بالديون في إفريقيا. وتضم المناطق الخالية من ذبابة «تسي تسي»، مثل المرتفعات أو منطقة الساحل شبه القاحلة، نحو ١٥٥ مليون رأس من الأبقار من أصل ١٦٥ مليوناً في إفريقيا جنوب الصحراء، مما يؤدي إلى نشوء ظواهر الرعي الجائر أو الاستخدام المفرط للأرض لإنتاج الأغذية. ولذلك فإن تحطيم حلقة الفقر يتطلب، في عداد ما يتطلب، تدابير لمكافحة التريبانوزوما وفقاً لما يؤكده السيد هندريكس الذي يقول «إن التصدي لهذه المشكلة الإفريقية الهامة يعتبر شرطاً أساسياً من الشروط اللازمة لتحقيق هدف مؤتمر القمة العالمي للأغذية المتمثل في خفض عدد الجياع بمقدار النصف بحلول عام ٢٠١٥ ».

وغالباً ما تلقى مشكلات ذبابة «تسي تسي» والتريبانوزوما الإهمال لأن ضحاياها، وهم الريفيون الأفارقة عاجزون عن إسماع صوتهم في المحافل الدولية كما يشير السيد هندريكس. غير أن ذلك آخذ بالتحول. ففي أكتوبر/تشرين الأول عام٢٠٠١، وبناء على طلب رؤساء الدول الإفريقية، فقد أطلقت منظمة الوحدة الإفريقية حملة لاستئصال ذبابة «تسي تسي» ومرض التريبانوزوما في عموم إفريقيا. ووافقت منظمة الأغذية والزراعة، ومنظمة الصحة العالمية، والوكالة الدولية للطاقة الذرية على تقديم المساندة النشطة لهذه الحملة. وستشرع السلطات الوطنية، بالتعاون مع الحملة المذكورة، في إقامة مناطق خالية من ذبابة «تسي تسي» في ثلاث جهات في إفريقيا جنوب الصحراء وهي حزام القطن في إفريقيا الغربية، ووادي الصدع الجنوبي في أثيوبيا، وبوتسوانا ومن بين الطرق التي أثبتت نجاحها في

مكافحة ذبابة «تسي تسي» تقنية الحشرات العقيمة. وفي ظل هذه التقنية يتم تعقيم ذكور ذبابة «تسي تسي» عبر استخدام الإشعاع ثم تُطلق في المناطق الموبوءة حيث تتزاوج. غير أنه على الرغم من أن الذكور تطلق حيوانات منوية أثناء عملية التزاوج فإن ذلك لا يؤدي إلى إخصاب بيوض الإناث البرية. ومع الإطلاق المستمر للذكور العقيمة فإن معدلات التكاثر في صفوف العشائر بأسرها تبدأ بالانخفاض بسرعة مما يؤدي إلى انقراض الحشرة. وقد نجح هذا الأسلوب، بالترافق مع الطرق التقليدية مثل الأفخاخ والمبيدات الحشرية، في تطهير جزيرة زنجبار التنزانية من ذبابة «تسي تسي عام ١٩٩٧». ووفقاً لما يقوله السيد هندريكس فإن هذه الجهود الساعية إلى القضاء على ذبابة «تسي تسي» لا تخلِّف أي آثار مداومة على النظام الإيكولوجي. ويوضح هندريكس أن «نقل الطفيليات لا يمكن أن يستمر دون عامل التسي التسي».

ويشير رافايلي ماتيولي، خبير صحة الحيوان لدى المنظمة إلى أن وجود ذبابة «تسي تسي» وما تنقله من أمراض يؤثر على اختيار الناس لمواقع سكناهم، وطرق إدارتهم للثروة الحيوانية، ومدى كثافة الزراعة المحصولية. وتؤدي الآثار المتضافرة لذلك إلى تحولات في استخدام الأراضي وفي استغلال الموارد الطبيعية والبيئة، كما تضر بالرخاء البشري، وتزيد من هشاشة الأنشطة الزراعية. ومن الواجب مراعاة جميع هذه العوامل عند تصميم استراتيجيات مكافحة ذبابة «تسي تسي»، بما في ذلك برامج الاستئصال، بغية تحقيق التنمية الزراعية المستدامة. وتشمل استراتيجية المنظمة لمكافحة ذبابة «تسي تسي» ومرض التريبانوزوما العناية بأمر الأوضاع المعيشية البشرية، والحد من الفقر، وإرساء الأمن الغذائي، والنهوض بخدمات الصحة العامة. وفي ظاهر الأمر فإن النهج المتكامل، أي تطبيق تقنية الحشرات العقيمة إلى جانب الطرق الأخرى، هو نهج مكلف

بالنظر إلى تفشي الفقر في إفريقيا جنوب الصحراء، واتساع رقعة المناطق التي ستشملها الحملة في نهاية المطاف، والحاجة بالتالي إلى أعداد ضخمة من الذكور العقيمة.

ويعلق السيد هندريكس على ذلك بقوله «إن المسألة ليست حجم التكاليف التي يتطلبها هذا النهج المتكامل لمكافحة ذبابة «تسي تسي»، بل حجم التكاليف الناجمة عن الإحجام عن المكافحة». وبالفعل فإن تكاليف إهمال مكافحة هذه الحشرة باهظة للغاية. كما أن طرق المكافحة التقليدية تتطلب تكرارها بانتظام علماً بأنها عاجزة عن الاستئصال التام لتلك الآفة بأسلوب لا يُضر بالبيئة.وبالمقارنة مع الطرق التقليدية فإن تقنية الحشرات العقيمة تتميز بأنها فعالة للغاية في ظروف العشائر الصغيرة في القضاء على آخر الذبابات المتبقية. وعندما يتعلق الأمر بمناطق واسعة ذات عشائر ضخمة فإن النهج المتكامل هو الأكثر اتساماً بالكفاءة التكاليفية بفضل وفور الحجم المتحققة. وتتطلب حزمة تقنية الحشرات العقيمة (إطلاق الذكور العقيمة مرة في الأسبوع على مدى ١٨ شهراً) استثمارات مماثلة لتكاليف تطبيق الطرق التقليدية على مدى سنتين إلى ثماني سنوات.

على أن من الواجب تحديد المناطق المستهدفة المناسبة قبل البدء بأي عملية واسعة لاستئصال الذبابة لضمان الكفاءة التكاليفية والاستدامة. وينبغي عدم إعطاء أولوية متقدمة إلى الأقاليم الموبوءة التي لا تصلح للزراعة أو تربية الأبقار. وتروج منظمة الأغذية والزراعة للعمل في مناطق مختارة حيث تعيق الآفة إرساء النظم الزراعية المختلطة التي تشتمل على تربية الأبقار وإنتاج الأغذية، وحيث تتوافر الإمكانيات للنهوض بالقدرة الإنتاجية الزراعية. وعلى غرار الطرق الأخرى فإن الواجب استخدام تقنية الحشرات العقيمة بطريقة تحقق الأثر الأمثل وتقلل من التكاليف إلى أقصى حد.

أكبر محمية طبيعية في العالم

كنت متشوقاً لزيارة المحميات الطبيعية فاستغنمت فرصة وجودي في نيروبي وقمت بالسفر إلى الوادي المتصدع الذي يبعد عن نيروبي حوالي مائة كيلومتر وهناك شاهدت الطبيعة الإفريقية الساحرة لكن الدهشة الكبرى كانت في إطلاعي على محمية تسافو الوطنية وهي أكبر محمية طبيعية في العالم وتشتهر أنها أرض الحمم والينابيع وأكلة لحوم البشر.

تقع هذه المحمية في جنوب غرب كينيا بالقرب من الساحل وتبعد عن نيروبي حوالي ٢٣٢كم وتبلغ مساحتها حوالي ٩٠٦٥ كم مربع وبارتفاع ١٥٠٠-١٨٠٠ متراً فوق سطح البحر ومناخها دافئ وجاف وقد سجل فيها ٦٠٠ نوع من أنواع الطيور المختلفة وتتميز بمجموعة من الحيوانات الإفريقية مثل الفهود وقرود الشيتا والبافلو والزراف والأسود والحمر الوحشية والفيلة.

وتشكل المسافة بين شرق وغرب تسافو واحدة من أكبر المحميات الطبيعية في العالم كما أشرنا إذ تحتكر لوحدها حوالي ٤% من مجموع مساحة الأراضي الكينية، وتسافو الغربية هي الأشهر بين الاثنين وتقع على الجهة الغربية من طريق نيروبي - مومبسا في الوسط تقريباً بين المدينتين والتي تعبق سماؤها بالسحب البركانية وتقذف قمم جبالها شظايا الحمم

البركانية الساخنة ورغماً عن ذلك تغمرها العديد من مياه الأمطار المكونة لأنهر جارية في فترات هطول المطر وينتج عن هذا الخليط بيئة خصبة لنمو الحشائش وبالتالي توافر الحياة البرية الصاخبة بجميع صنوفها.

وتمتد مجاري ينابيع مزيما الساحرة التي تغذيها المياه النابعة من على قمم الجبال البركانية بـ٢٥٠مليون لتر من الماء يومياً صانعة بذلك رقعة واسعة من اللون الأخضر الذي يسحر كل من يراها.

وهناك رووا لنا حكاية الأسود آكلة لحوم البشر حيث اشتهرت تلك الأرض بأنها موطن الأسود الشرسة وأن حادث القطيع وقع في عام ١٨٩٨م عندما هاجمت قطعان الأسود الجائعة بعض عمال السكك الحديدية في ذلك الوقت وقضت على معظم هؤلاء، وظلت هذه الحكاية يسمعها كل من يزور هذه المنطقة.

وشاهدت هناك الجزء البركاني المتوسط النابض بالحيوية والذي يعرف بقاذف اللهب الشيطاني كما يحلو للأهالي المحليين تسميته وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً منذ ما يقارب الألفي عام أن قذفان اللهب والحمم هذا إنما هو من عمل الشيطان.

وحدثنا المرشد السياحي الذي رافقنا أنه يمكن لهواة التسلق ممارسة هواياتهم كما في كل من تلال نقوليا الساحرة ومرتفعات شيلول اللتان يقصدهما هواة ممارسة هذه الرياضة بكثرة. وفي الأفق البعيد ترابط (الجبال المزمجرة) والتي أطلق عليها هذا الاسم نسبة لما تصدره من أصوات هادرة وزمجرات عاتية حين مرور الرياح عبرها.

ويستطيع الزائر للمحمية أن يشاهد من الحيوانات البرية الفيلة

وأفراس النهر والتماسيح الضخمة والكثير من أسراب الطيور، كما يتسنى للزوار التوجه إلى بحيرة (جيبا) الواقعة على الحدود مع تنزانيا والتي يقصدها الآلاف من غرائب الطيور، وللتمتع بمراقبتها عن قرب وفرت إدارة المحمية بعض المراكب للإبحار عبر البحيرة.

عدت من تلك الرحلة الممتعة وقد تركت بنفسي انطباعات عميقة حول أكبر محمية طبيعية في العالم تضم أكثر الأصناف من الكائنات الحية التي تشكل متعة للناظرين.

❖ ❖ ❖

الطرق الصوفية في السودان

لم أجد بلداً عربياً أو إسلامياً تتواجد فيه الطرق الصوفية وتتعدد كما السودان التي يتفوق سلطانها على أي سلطان آخر في المجتمع السوداني ولعل السبب يعود إلى أن الإسلام لم يدخل فاتحاً عسكرياً السودان وإنما دخلها عن طريق انتشار الطرق الصوفية.

وتعد الصوفية إحدى الدعائم الأساسية في التركيبة الشخصية للمواطن البسيط السوداني، فكل فرد وحتى مسؤول له شيخ يحترمه ويقدره ويقف عنده ودائماً ما يطلب منه أن "يشيل له الفاتحة" أي: أن يقرأ له الفاتحة ويدعو له بالبركات.

وفي الخرطوم تكتشف أن المدائح النبوية تملأ الشوارع والإذاعة والتلفزيون وفي التاكسي وحتى في العربات الخاصة، ومن أشهرها مدائح الشيخ عبد الرحيم البرعي المعروف بشيخ السودان كله والذي كان يقف ببابه الجميع بدءاً من الرئيس حتى المواطن البسيط.

والطرق الصوفية لها سلطانها القوي على الشارع السوداني جماهيرياً وسياسياً، فتوجد في السودان حوالي ٤٠ طريقة صوفية أشهرها: (القادرية - الختمية - المهدية - التيجانية - السمانية..) وهذه الطرق منتشرة في كل أنحاء السودان، وهي ممتدة إلى دول الجوار في نيجيريا وتشاد ومصر وغيرها.

وتتنافس هذه الطرق فيما بينها على الشارع السوداني ويساعدها في

ذلك النشئة الدينية في المجتمع نفسه، ولذلك تجده ينجذب إلى مثل هذه الطرق بل يقدسها أحياناً، ومن جانبها تقوم الطرق بالتواصل الفعلي مع الناس عن طريق خدمات مفيدة تقدمها لهم مثل إنشاء المدارس والمستشفيات والمعاهد الدينية وكذلك «الخلاوي» لحفظ القرآن.

والخلاوي عبارة عن مدينة صغيرة يجتمع فيها الطلبة في معيشة كاملة، والعمل الوحيد بها هو حفظ القرآن، ويأتي إلى هذه الخلاوي طلبة من كل السودان ومن الدول المجاورة يعيشون بها فترات تصل إلى ٧ سنوات، ويستطيع مريد الطريقة أن يطلب من شيخه إعانات مادية لحياته، ومن هنا كانت الصلة الوثيقة بين الطرق الصوفية والمجتمع، وفي داخل الطريقة نفسها تجد مؤسسات داخلية، وكأنها دول مصغرة فهناك إدارة خاصة بالخلوة والمستشفى والمدرسة والمالية وغيرها تقدم التقارير إلى شيخ الطريقة وتعرف هذه العملية «بالمسيد» وهو إدارة أعمال مؤسسات الطريقة.

والملاحظ في السودان أن شيوخ الطرق على درجات علمية كبيرة فبعضهم أستاذ الجامعة ومنهم من يدرس بلندن ويجيد عدة لغات مثل الشيخ «حسن الفاتح قريب الله» الذي ألف أكثر من ١٠٠ كتاب أسهمت كثيراً في المدرسة الصوفية وأدبياتها، وطورت من الفكر الصوفي نفسه، وهناك أيضاً من عمل سفيراً ووزيرا، مثل: الشيخ كمال عمر، وكان الرجل الثالث في زمن الرئيس الأسبق «جعفر نميري» وبذلك استطاعت الصوفية أن تكسر الصورة الذهنية التي كانت مأخوذة عنها في أنها مجموعة من الدراويش والمجاذيب وسلكت مسلكا آخر استطاع بدوره أن يؤثر في السياسة السودانية نفسها، فهنا لا تتعجب أن ترى رجال السياسة يجتمعون برجال الصوفية للتباحث معهم في أمر جلل يخص البلاد، ودائما يأخذون بنصائحهم لما لهم من تأثير كبير على الناس، وعلى من يريد التقارب مع السودانيين والتأثير منهم أن يدخل عبر بوابة الصوفية.

يوجد في السودان حوالي ٤٠ طريقة صوفية كما ذكرنا آنفاً وتتميز هذه الطرق بأن لها انتشارها الجغرافي فلكل طريقة مركز ثقل في منطقة جغرافية بالسودان، ويؤكد ذلك الدكتور حسن مكي الخبير الإفريقي، فتتمركز الطريقة السمانية في وسط السودان، وهناك مراكز صغيرة للسمانية في غرب أم درمان ومدني، والطريقة التيجانية منتشرة في دار فور وبعض المدن الأخرى مثل: شندي والدامر وبارا والأبيض، إضافة إلى أم درمان والخرطوم.

وتنتشر الطريقة الختمية التي يتزعمها «محمد عثمان الميرغني» في شرق السودان وشماله والخرطوم بحري، وينتشر الأنصار الذين يتزعمهم «الصادق المهدي» في النيل الأبيض، والجزيرة وأم درمان، أما الطريقة القادرية فتوجد في وسط السودان ومنطقة ولا ية النيل - الجزيرة، وتتفرع إلى فرع الشيخ «الجيلي» والمكاشفية والبدراب والطيب الشيخ عبد الباقي، وهناك أيضاً طرق حديثة صغيرة مثل «البرهانية» و «التسعينية» و«الدندراوية»، «الأدارسة».

تستخدم معظم الطرق الصوفية في السودان أوراد الطريقة الشاذلية، وكل طريقة لها أورادها الخاصة بها التي تميزها عن غيرها، وبعض الطرق لها «راتب» يقرأ فيه جزء مقدر من هذه الأوراد كل صباح ومساء مثل «الأنصار» وتقرأ بعض الطرق الأذكار والاستغفارات، مثل «السمانية» وغيرها.. وتعرف بعض الطرق كتابة التعاويذ ومداواة المرضى النفسيين.

لكل طريقة شعار خاص بها، ولكن الطريقة السمانية ليس لها زي معين وما يميزها «الكرامة» وهو حزام يشد به المريد وسطه، وهو مصنوع من الجلد وذلك دلالة على الجد في المسير، ونلتزم بالزي الأبيض وليس هذا فرضاً على السالكين. ومنهجنا في الطريقة هو الإيمان بالله وبالرسل والكتب السماوية والملائكة وبما جاء في الأثر وبهذا نسير على السنة المطهرة،

ونختلف عن الطرق الأخرى في أننا نبدأ أورادنا في الثلث الثاني من الليل، ويكون هناك ورد في السحر يزيد على ساعة ثم الأوراد التي تستمر لمدة ساعة وبعدها الشروق ثم خواتيم دبر كل صلاة، وهناك ورد المغرب بين غروب الشمس والعشاء، ويضيف: لنا أذكار في يوم الاثنين والجمعة وهذا الذكر لا يصاحبه «دف» ولا طبول ولا موسيقى ويصاحب الذكر تمايل، ليذكر العباد «الله» في كل الجهات.

أما الطريقة التيجانية فيقول شيخها «كمال عمر الأمين العمراني»: إن أورادها هي الاستغفار والصلاة على الرسول ولا إله إلا الله وللطريقة حاضرة يوم الجمعة وهي ذكر لله فقط بدون أي دف.

ورغم هذه الأوراد والأذكار للطرق الصوفية في السودان فإن لها وجهاً آخر، حيث تؤثر تلك الطرق بشدة في الشارع السياسي، لاعتبارات متعددة منها أن العقل السوداني بطبيعته صوفي، ولأن كثيراً من الأحزاب تقوم على الطرق الصوفية مثل: الاتحاد والأمة والأخوان المسلمين وبعض أنصار السنة، ومن ثم تهتم الحكومة بالصوفية وطرقها.

ويقول الشيخ «كمال عمر الأمين» الذي كان أميناً عاماً للشؤون السياسية في الاتحاد الاشتراكي في عهد الرئيس السوداني السابق «جعفر نميري»: تؤثر السياسة على الشارع في السودان وكل حاكم له شيخ بجواره.

الوراثة في رئاسة الطرق الصوفية في السودان ليست ظاهرة عامة، فالطريقة القادرية - مثلاً - لا تقوم على الوراثة ويقول «الشيخ بدر» الخليفة: عندنا الخلافة ليست بالميراث، ولكن بالاتفاق مع شخص معين.

ومن الأمور التي تفتخر بها القادرية أنها من الطرق العريقة فلها مسجد تأسس منذ ١٦٢ عاماً وأنها تحتفظ بنار مشتعلة منذ ذلك التاريخ لم تطفأ، حيث كان الطلبة في الخلوة يشعلونها لقراءة القرآن الكريم، ولم تطفأ

منذ ذلك التاريخ، وتسمى هذه المنطقة «أم ضوبان» أي المكان المضيء دائماً وأضبحت تراث لدينا.

❖ الصوفي ـ أدوار متعددة في السودان:

أن للصوفية دوراً جاداً في المجتمع فالمتصوفة هم أدرى بمشاكل الناس، وفي السودان كان من الممكن أن تلعب الصوفية دوراً كبيراً في مشكلة دار فور، ولكن الحكومة هي التي بدأت بالحل.

وقد لعب الشيخ «حسن الفاتح قريب الله» دوراً مؤثراً في إدخال الصوفية في الجامعات وتغيير الصورة الذهنية التي كانت مأخوذة عن المتصوفة بأنهم مجرد دراويش، بالرغم من أن درويش درجة متقدمة في الصوفية.

والخلوة من الأماكن المهمة في تنشئة المتصوف، وهي مكان ينعزل فيه المتصوف عن الناس ويدخل في جو من العبادة والذكر الطويل حتى تتشبع نفسه بروح التصوف وتصفو من الشوائب، وتلعب الخلوة دوراً مهماً في تحفيظ القرآن الكريم، وفي كل عام يعقد مؤتمر حاشد للطرق الصوفية في قلب الخرطوم «قاعة الصداقة» ويحضره زعماء هذه الطرق ويخطب في هذا المؤتمر رئيس جمهورية السودان ونائبه.

❖ ❖ ❖

صوفي ثائر غيّر وجه السودان

ربطتني علاقة طيبة بالإمام الصادق المهدي زعيم حزب الأمة القومي وسليل الإمام المهدي الذي غير وجه السودان والرجل صاحب حضور سياسي عريق وله مؤلفات عديدة وشخصية دولية بارزة وتسلم السلطة في السودان عدة مرات لكن لا يمكن فهم ما يجري في سودان اليوم دون العودة إلى الذي توفي قبل ما يزيد عن قرن من الزمان جد الأمام الصادق، إذ لم تحظ شخصية سودانية على مر التاريخ بذلك الحضور الذي شكّله الإمام محمد أحمد المهدي على الوجدان والوعي السودانيين، ولم ينافسه في ذلك قائد سياسي ولا شيخ طريقة أو زعيم قبيلة.

فالمهدي هو أبو الوطنية السودانية وواضع أسس السودان الحديث، ثم إنه - أي المهدي - زعيم ديني في بيئة تحترم الدين وعلماءه، ومصلح اجتماعي في بيئة تكثر فيها الانحرافات الاجتماعية، وهو علاوة على ذلك زعيم شعبي بسيط عاش وهو يلبس المرقع من الثياب ويأكل الخشن من الطعام، فكان لصيقاً بالجماهير التي أحبته ومنحته ولاءها وسارت خلفه في الثورة ومن ثم إقامة دولة كانت هي الأساس لدولة السودان بملاحمها المعروفة اليوم.

انضم الفتى محمد أحمد إلى بعض الطرق الصوفية، تلك الطرق التي كانت - وما تزال - تمثل أحد أكبر مقومات النسيج الديني والاجتماعي في السودان، وقد كان يندر آنذاك ألا ينخرط شاب في سلك طريقة صوفية.

وبعد انخراطه في سلك التصوف تعمق في قراءة ودراسة كتب الصوفية، فقرأ للغزالي «إحياء علوم الدين» وتأثر به جداً، كما قرأ لمحيي الدين بن عربي وغيرهما من أعلام التصوف، وأخذ نفسه بمنهج صوفي صارم وانهمك في العبادة ونزعت نفسه إلى الخلوة والزهد.

وبعد تقدمه في سلك الطريقة التي انتمى إليها - الطريقة السمانية - غدا من أقرب المقربين إلى شيخ الطريقة محمد شريف، وأصبحت له مكانة داخل الطريقة ولدى سكان كثير من المدن التي زارها وترك أثراً طيباً في الناس الذين تأثروا بورعه وزهده وشخصيته الآسرة.

ثم انقطع بعد ذلك للعبادة واختار جزيرة في النيل الأبيض اسمها جزيرة «أبا» وهي التي أصبحت فيما بعد منطلقاً لدعوته، وفيها زاد إقبال الناس عليه لاشتهاره بالزهد والورع.

وخلال هذه الفترة وقع الخلاف بينه وبين شيخه، فقد كان الشيخ محمد شريف من خريجي الأزهر وله مكانة وحظوة لدى الحكم التركي المصري، وكان الفتى يرى أن حياة شيخه لم تكن تخلو من الترف والبذخ.. وتطور الأمر إلى أن اعترض التلميذ على شيخه عندما أقام حفلاً باذخاً لختان بعض أولاده، رأى أن فيه ترفاً وبذخاً وتبذيراً وأنه لا يتفق مع المنهج الصوفي.

وقد أدت هذه الحادثة بشيخه إلى طرده من حظيرة الطريقة السمانية، لكنه حافظ على علاقته بهذه الطريقة عن طريق شيخ آخر هو الشيخ القرشي في منطقة «طيبة» بالجزيرة والذي أعجب به وزوّجه ابنته وسلّمه مشيخة الطريقة من بعده، فذاع صيت الفتى وأصبح له مريدون كثر.

لقد كان الفتى محمد أحمد يتصف بالعناد والتصميم والاندفاع الحماسي نحو الأمور التي يتصدى لها ويمضي في الطريق حتى نهايته. وقد

اعترف له أعداؤه بهذه المسألة، يقول القس آهر ولد الذي سجن عشر سنوات في زمن الدولة المهدية يقول عن «المهدي» كان مظهره الخارجي شديد الجاذبية، فقد كان رجلاً قوي البنية، سحنته تميل إلى السواد، ويحمل وجهه دوماً ابتسامه عذبة، وأسلوبه في الحوار حلو وسلس.

ويروي ونجت باشا - مدير مخابرات الجيش المصري - عن قدرته الخطابية فيقول: «إن الرجال كانوا يبكون ويضربون صدورهم عند سماع كلماته المؤثرة، وحتى رفاقه من الصوفية لم يخفوا إعجابهم به، وليس في شكله ما يثير إلا عندما يبدأ الوعظ، وعندها يدرك المرء القوة الكامنة فيه التي كانت تدفع الناس لطاعته».

ويقرر المؤرخ السوداني د. محمد سعيد القدال ذلك بقوله: «لقد توفرت لمحمد أحمد صفات مميزة أهلته للقيادة في مجتمع السودان في القرن التاسع عشر، فهو صوفي زاهد يحظى بتقدير الناس ويهرعون إليه طلباً للغوث والبركة، وهذه هي الصفات الأساسية للقيادة في ذلك المجتمع، ومكنته دراساته المتنوعة من امتلاك قدرات علمية ولغوية واسعة، وله جاذبية (كاريزما) يؤثر تأثيراً قوياً على من حوله، وتضافرت كلها مع نشاطه العلمي وقدراته الذهنية فرفعت درجات وعيه الاجتماعي مما قاده إلى فكرة المهدي المنتظر التي كانت تضج بها جنبات المجتمع، ورأى نفسه الشخص المؤهل لحمل أمانتها" ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

وأثناء أحاديثي مع الإمام الصادق المهدي وعمه الإمام أحمد تطرقا إلى كتاب ألفه ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا المعروف اسمه حرب النهر يصف فيه الثورة المهدية عندما كان تشرشل في عداد القوات الإنكليزية مراسلاً حربياً فطلبت منه نسخه من الكتاب واستمتعت بقراءته أيما

استمتاع فالمؤلف بارع في سرد الوقائع والأحداث بأسلوب أدبي سلس والمترجم عز الدين محمود أجاد في الترجمة فجاء حرب النهر وهو تاريخ الثورة المهدية كتاباً ممتعاً وقد نال المؤلف عليه جائزة نوبل للآداب ورغم أن المؤلف انطلق من رؤية بريطانية للأحداث إلا أنه كان موضوعياً في بعض من الأحيان تجلت أكثر ما تجلت في عبارته الشهيرة التي سطرها في نهاية الكتاب أننا لم نهزمهم ولكننا قتلناهم.

* * *

الفهرس

الصفحة

الصفحة

صدر للمؤلف

- القانون ورسائل الإعلام (التشريعات الصحفية)

دار يعرب للنشر والتوزيع + جامعة دمشق

- الإعلام العربي وتحديات العولمة

وزارة الثقافة – سورية

- حقوق المؤلف بين النظرية والتطبيق

اتحاد الكتاب العرب – سورية

- حقوق الملكية الأدبية والفكرية

نقابة المحامين – سورية

- عملاق يستيقظ

دار الشادي للنشر والتوزيع – سورية

- السودان بين الدهشة والشجن

وزارة الثقافة – سورية

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

هذا الكتاب

خواطر وذكريات من القارة تصور مشاهدات وتسجل انطباعات عن عالم ما زال الكثير منه مجهولاً.

ملايين البشر في إفريقيا لا يعرفون إلا الجوع والفقر والمرض والموت البطيء وإذا عاش فإنه يعيش عصر ما قبل التاريخ لا يعرف من التقدم الذي وصلت إليه بعض أمم الأرض حتى النذر اليسير هؤلاء المنسيون يأتي الأوربيون إليهم لا من أجل معاونتهم بل لأجل أن يتلذذوا بمشاهدة بؤسهم وعذاباتهم عندما يذهبون في رحلات السفاري بين الفيافي والأدغال هذا الكتاب يضيء بعضاً من جوانب الحياة في إفريقيا حلوها ومرها الطبيعة البكر والثروات الهائلة والناس المعذبين في الأرض والبشر المهمشين والهموم والمستقبل.





مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ٨٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ١٦٠ ل.س